[١٠٩] القسم الثالث
العربيـــة الجنوبيـــة
الفصل الثامن
العربيـــة التـي كانت تسمـى: السعيـــدة

عندما نبدأ الحديث عن العربية الجنوبية، تعـود بنا المخيلة إلى التقسيم التقليدي للجزيرة العربيـة. لأنه، كيف لنا، أمام المدرجات الخضـراء لليمن، ألا نذكر **اليمن السعيد** في التاريخ القديم. وإذا أقـررنا بهذه السعادة النسبيـة، فإن الجنوب الغربي للجزيرة العربية يحق له أن يطالب بأن يوصف بمثل ذلك، عندما نقارن بينه وبين باقي الجزيرة العربية.

لقد كانت عسير، ونجران، وحضرموت، وباقي محمية عدن، والمملكة المتوكلية في اليمن، منطقـة خصيبة في جـزيرة العرب التي اشتهرت عـموماً برمالهـا أكثر من شهرتها بمروجها الخضراء.

أما في أيامنا هذه فـإن لقب العربية السعـيدة يطلق غالباً على اليـمن وحدها، لأنهـا أغنى الأقـاليم، وأكثـرها سكـاناً، حتى في العـربية السعـيدة القديمة. وفي عام ١٩٣٤م أُقِرَّ على وجه التقريب التقـسيم الحالي للمنطقة. وفي هذا التاريخ، كما رأينا، حصل الملك عـبد العزيز من اليمن على اعـتراف بسلطته على عسـير ونجران؛ وحصل بريطانـيو عدن من الإمـام يحيى على اعتـراف بقبول الأوضـاع الراهنة على الحدود الجنوبية. ولكن الاضطرابات لم تتوقف يوماً في المنطقة الأخيرة.

لقد كانت السلطات البريطـانية ترفض رؤية الأجانب يزورون داخل بلاد عدن. أما إمام اليـمن، الذي كان يعتصم في الجـبال العالية، فـإنه ذو سلطة مطلقة، وبلاده هي [١١٠] من أكثـر البلاد انغـلاقاً في وجـه التأثيرات والمؤامـرات الخارجـية. ولما

حصلت البلاد على استقلالها بعد سقوط الدولة العثمانية عام ١٩١٩م، جعل الإمام يحيى بن محمد حميد الدين من الانعزالية المفرطة المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه سياسته كلها. وقام ابنه أحمد الذي أصبح ملكاً منذ عام ١٩٤٨م بفتح البلد على استحياء بعض الانفتاح للتقنيين الأجانب، وأرسل ممثلين عنه إلى الأمم المتحدة، وإلى عاصمتين أو ثلاثة من العواصم الكبرى، ورضي بمنح بعض الامتيازات للتنقيب عن المعادن، وتحالف عسكرياً مع مصر والمملكة العربية السعودية. وبدأت تخف حدة العزلة شيئاً فشيئاً. ومع ذلك، فإن عدد غير المسلمين الذين أقاموا في اليمن المستقل لا يتجاوز بضع مئات.

إن اليمن نموذج للبلد النامي ، لأنه من البلدان الغنية بالطاقات. وتنتقد البلاد العربية الأخرى الإمام العجوز، ومن نظامه الذي يعود إلى ما قبل الطوفان. ولكنها لا تستطيع إخفاء احترامها الشديد، وودها الصافي لهذا البلد. لأنه إذا كان الحجاز السعودي يستحق لقب «أرض الإسلام المقدسة»، فإن اليمن وحده يمكن أن يفخر بأنه تاريخياً «مهد العرب». فمن هذه الزاوية المكتظة بالسكان من الجزيرة العربية، انطلقت الهجرات التي ذهبت لتسكن البلاد الواقعة على جوانب البحر الأبيض المتوسط، وهو ما نسميه الشرق الأوسط. لقد كان في هذا اليمن الكبير-الذي كان في القرن الأول من التاريخ مؤلفاً من العربية السعيدة كلها- والذي يسميه لورانس «مصنع البداوة»، الوطن الأصلي للعرب جميعاً. وقد انتشر اليمنيون إبَّان الفتوحات الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط كله، فنجد، في بلاد الرافدين، وحتى في المغرب، أسراً عريقة، وقبائل عربية تفاخر بأصلها القحطاني في العربية الجنوبية. وذكَّر روبير مونتيني بالجهود التي بذلها البربر في شمال إفريقيا ليجدوا لأنفسهم شجرة نسب يمنية-حميرية[1]. والسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا غادر سكان العربية السعيدة [١١١] بلادهم الجميلة في الماضي الغابر ؟ ومازالت ظاهرة الهجرة مستمرة حتى أيامنا هذه،

(١) انظر إفريقيا وآسيا، رقم ٣٢، الفصل الرابع ١٩٥٥م. وانظر أيضاً لويس ماسينيون وفانسان مونتيني: دليل العالم الإسلامي(مواضع مختلفة)، م. س.

ويُقَدَّر عموماً بأكثر من مليون عدد اليمنيين الذين يعيشون خارج اليمن. إن السبب الأساسي للهجرة هو بلا ريب كثافة السكان، لأن الأرض اليمنية، وكما هو الأمر في بلاد القبائل الجزائرية، لا تستطيع بجبالها الشامخة تأمين الغذاء لكل أبنائها؛ لهذا نجد يمنيين يحملون الجنسية الفرنسية في جيبوتي، ولما نذهب بعيداً، ويمكننا أن نقابل بعض اليمنيين في مرسيليا. ويبدو إن سبب الهجرات الأولى كان تصدع سد مأرب العظيم، وإن خراب السد نهائياً في القرن السادس الميلادي، كما يؤكد ذلك عدد من المؤرخين، أعلن نهاية إحدى الحضارات العظيمة التي عرفها العالم القديم[1].

مملكة سبأ

تحدثنا روايات الجغرافيين الإغريق التي أكدتها الاكتشافات الأثرية الحديثة أشياء كثيرة عن ممالك عظيمة في جنوب الجزيرة العربية، مزدهرة ومتحضرة، يرجع تاريخها إلى خمسة عشر أو عشرين قرناً قبل الميلاد. وأعظمها مملكة سبأ، التي دخلت عالم الأساطير. والتي يُذكر أن ملكتها ذهبت بنفسها إلى القدس لتتأكد من قوة النبي سليمان عليه السلام. لقد كان ازدهار السبئيين قائماً على تجارة قوافل التوابل والبخور المربحة، التي كانوا يحتكرونها، وعلى علمهم، وتقنيات الري التي سمحت لهم بتطوير الزراعة تطويراً كبيراً. وتتجلى عبقريتهم في البناء من خلال ما نراه من آثار مهدمة في مأرب العظيمة، التي يبدو أنها كانت، مع شبوة في عصر آخر، عاصمة المملكة. وفي الوقت نفسه الذي ازدهرت فيه مملكة سبأ، ازدهرت أيضاً ولكن لفترة بسيطة، مملكة قتبان في أقصى الجنوب الغربي، ومملكة حضرموت، اللتين شمل نفوذهما حدود محمية عدن الحالية. وفي الشمال تعاصرت المملكة المعينية في أول الوقت مع مملكة سبأ، من حوالي ١٢٠٠ إلى ٦٥٠ قبل الميلاد. ولسنا نملك معلومات

(١) وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم: سورة سبأ، رقمها ٣٤، الآية ١٥ .

- وانظر: فيليب حتي: تاريخ العرب، بايو، باريس، ١٩٥٠ .

[١١٢]كافية، مفصلة عن الممالك العظيمة في جنوب الجزيرة العربية. وإني اعتقد شخصياً أن التنقيبات التي بدأتها تواً بعثة ويندل فيليبس Wendell Phillips ستؤدي إلى اكتشافات مثيرة عن مكانة حضارة جنوب الجزيرة العربية في حضارتنا المتوسطية، والدور الذي أدته الجزيرة العربية قبل الإسلام في العالم القديم.

ويخبرنا أحد المؤرخين العرب الكبار فيليب حتي أن « الفترة السبئية تمتد حتى حوالي ٩٥٠ إلى ١١٥ قبل الميلاد. . . كان السبئيون في قمة مجدهم التجاري، يبسطون سيطرتهم على طرق المواصلات التي تعبر الحجاز نحو الشمال، وكان لهم محطات أقاموها على طول هذه الطرقات »[١] .

الإمبراطورية الحِمْيَرِيَّة

في سنة ١١٥ قبل الميلاد، بدأ العصر الحميري المزدهر في العربية الجنوبية. وحمير أشهر الأسر المالكة التي نعرف عنها معلومات كثيرة، مع أننا لم نصل بعدُ إلى درجة كافية من المعرفة بتاريخها. كانت العربية السعيدة موحدة تحت سلطتها، وحملت حضارتها إلى أسيا الوسطى وإلى الحبشة. لقد تجلى خلال هذه الفترة المجد الحميري في أبهى مظاهره، ولكنه كان الأوج الذي يسبق الانحطاط.

حكم الحميريون في سبأ أولاً، ثم في ظفار، وكانوا يحملون لقب ملوك سبأ إبَّان حكم الأسرة الأولى، الذي استمر حتى ٣٤٠م. لقد ضموا إلى مملكتهم في هذه الفترة الأولى قتبان، ثم حضرموت فيما بعد. وفي أواخر القرن الثالث الميلادي، توحدت تحت سلطتهم العربية الجنوبية كلها. حينئذٍ بلغ الحميريون أوج قوتهم. لقد سيطروا على «طريق البخور» القديمة كلها، وكذلك على سد مأرب العظيم، أحد عجائب العالم القديم. وقد طمع الرومان في السيطرة على بلادهم، ولكن محاولات

(١) تاريخ العرب، م. س، ص ٥٢ و ٥٤ .

احتلالها باءت بالفشل؛ وأشهر تلك المحاولات محاولة القائد الروماني أليوس غالوس[1] Aelius Gallus في سنة ٢٤ قبل الميلاد. لقد توغل عشرة آلاف جندي كانوا معه في أتون الجزيرة العربية الصحراوية دون أن تكتحل عيونهم [١١٣] برؤية العربية السعيدة. وفي بداية حكم الأسرة الأولى أيضاً، اجتاز بعض اليمنيين العرب من حضرموت البحر الأحمر، وأرسوا قواعد الإمبراطورية الحبشية. ولكن الإمبراطورية الحميرية بدأت في الانحطاط بعد المنافسة التجارية الشديدة التي واجههم فيها الرومان بعد احتلالهم مصر. لقد اكتشف هؤلاء مواعيد هبوب الرياح الموسمية فتجنبوها، «ودخلت سفنهم المحيط الهندي آمنة. حينئذٍ دق جرس الإنذار ينذر بزوال ازدهار العربية السعيدة»[2] .

ولم يمضِ وقت طويل على خسارة الاحتكار التجاري في المحيط الهندي، حتى ابتليت الإمبراطورية العربية الحميرية في جنوب الجزيرة العربية للتجارة بحدوث تصدعات أولية في سد مأرب العظيم. كان تتجمع خلف السد المياه المنحدرة من الجبال اليمنية. وكان ماء البحيرة الكبيرة التي نشأت وراءه، يشكل العصب الحيوي للحياة، ويوزع بانتظام لري آلاف الهكتارات. وأغرق الماء المنطلق من الصدوع الأولية الحقول التي كان يرويها، وخربها. ونتج عن ذلك أولى الهجرات. ويذكر بعض المؤرخين أن السد الذي رُمم جزئياً، عاد وانهار تماماً في القرن السادس الميلادي، لأن السكان الذين قل عددهم، وضعفوا، توقفوا عن صيانته. وفي فترة الضعف المتدرج هذه قام الأحباش بغزو اليمن أول مرة في عام ٣٤٠م؛ وطُردوا منها عام ٣٧٨م. واستعاد الأباطرة الحميريون الذين نسميهم التبابعة استعادة عرشهم. وفي هذه الفترة الحميرية الثانية دخلت المسيحية واليهودية إلى اليمن الوثنية[3] .

---

(١) الوالي الروماني على مصر، وقام بحملته التي باءت بالفشل على جنوب الجزيرة العربية في عام ٢٤ ق.م (المترجم).

(٢) فيليب حتي، م. س.

(٣) انظر« في اندماج اليهود اليمنيين في إسرائيل» ، مجلة السنة الاجتماعية ١٩٥٣-١٩٥٤، م. س.

المملكـــة اليهوديـــة

يذكر فيليب حتي «أن أول بعثة مسيحـية إلى العربية الجنوبية أرسلها الإمبراطور قسطنطين Consttius عام ٣٥٦م بقـيادة تيـوفيلوس أندوسThéophilus Indus »[١]. وبدأ المبشرون المسيـحيون التبشير بالدين الجديد الذي تمكن في نجـران. أما اليهودية، فيبدو أنها دخلت اليمن حوالي نهاية القرن الرابع الميلادي بوساطة يهود الحجاز [١١٤] ونجد[٢]. و كان هؤلاء أنفسهم من العرب الآراميين، حديثي العهد باليهودية، ينتمون إلى القبـائل العربية الوسطى، واعـتنقوا اليهـودية بتأثير بـعض الأسر التي هربت من فلسطين بعد سقوط القدس بيد تيطوس[٣] Titus عام ٧٠م.

ولكن الوثنية ظلت على الرغم من ذلك موجودة في اليمن، ولم تتلاشَ إلا مع الفتح الإسلامي. وفي نهاية القـرن الخامس، شهدت اليهودية توسعاً حقـيقياً، عندما أصبحت دين الدولة في أيام حكم «ذو نواس»، آخر التبابعة الحميريين. لقد أراد تبع، الذي اتبع العقـيدة الموسوية، أن يفرضـها على شعبـه كله. وأدى التنافس بين أنصار الدينين التوحيديين، والجماعات الوثنية الحـريصة على عباداتها إلى إشعال نيران حرب أهلية في البلاد. فـاستغل الأحباش ضـعف البلاد، وعادوا إلى غزو الجـزيرة العربية الجنوبية في عـام ٥٢٥م، وقضوا على المـملكة اليهودية لأخـر الأسر الحمـيرية. ولم يقفـوا عند هذا الحد بل حاولوا عـبثاً غـزو مكة المكرمة[٤] . وكان الأحبـاش خلال الخمسين سنة التي حكموا اليمن فيها مهتمين بالسرقة أكثر من اهتمامهم بتنظيم البلد، فساعـدوا بذلك على الإسراع في انحطاط العربية السعـيدة. لقد بذلوا جهوداً كـبيرة لحمل اليـهود والوثنيين على اعتناق المسـيحيـة، وقد كان هذا عـملهم الجوهري الذي

---

(١) م. س. ، ص ٦١ .

(٢) هذا النص بحاجة إلى مـراجعه فإن اليهودية لم تعـرف في نجد، وربما كان فيها المسيـحية، ومع ذلك لم تكن بالظاهرة التي يمكن تصديرها إلى الخارج. (المترجم).

(٣) إمبراطور روماني(٣٩-٨١م)، حكم من (٧٩-٨١م). دخل بيت المقدس ودمرها في عام ٧٠م(المترجم).

(٤) وهذا حدث تشيـر إليه السورة ١٠٥ من القرآن الكريم، المسماة سـورة الفيل، لأن الأحباش فيمـا يبدو كانوا يمتطون الفيلة في الحرب، ويمكن أن نرى فيها البديل القديم للدبابات الحربية.

قامـوا به. ويبدو أن خـراب سد مأرب نهـائياً كـان في ظل سيطرتهم. وكـذا السيل العظيم الذي يتحـدث عنه القرآن الكريم(السـورة ٣٤، الآية ١٥). وأدت هذه النكبة الكبرى إلى هجـرة شاملة، متـعددة النتائج، نحـو شمال الجزيرة الـعربية، وإفريقـيا الشرقيـة، وشبه القارة الهندية، والجزر الـتابعة لها. وأظن أن موجـات الهجرة هذه، التي مازالت مسـتمرة حتى اليـوم، كانت عاملاً مهـماً في انتشار الإسلام، والثـقافة العربية الإســـلامـية في المتوسط والمحيط الهندي. ويبـدو أن أوائل صحـابة رسول الله ﷺ، الأنصار(القرآن الكريم ٨:٧٣، و ٩: ١٠١ و١١٨) كانوا في غالبيتهم من المهاجرين اليمنيين.

في عام ٥٧٥م، طرد الـفرسُ الأحبـاشَ من العربيـة الجنوبية، واحتلـوا اليمن وحضرمـوت.[١١٥]وبينما كانت الإمبراطورية الفـارسية تدخل في طور الانحطاط، كان الإسلام قد أصبح قوة فعالة صاعدة في الجزيرة العربية. ففي عام ٦٢٢م، حدثت الهجـرة النبوية؛ وبعد ست سـنوات، في عام ٦٢٨م، اهتدى باذان، خـامس مرازبة الفرس في اليمن إلى الإسلام، وفُتحت حضرموت في عام ٦٣٣م. ودخل المسيحيون واليهود والوثنيين أفواجاً في الدين الجديد الموحى.

اتساع نفوذ الإمامـــة الزيديـــة

منذ ظهور الإسلام، انتقل مركز الثقل في الجزيرة العربية إلى المدينتين المتنافستين في وسط الجزيرة العربيـة؛ مكة المكرمة، والمدينة المنورة، يثرب القـديمة التي أصبحت مدينة النبي ﷺ.

وأصبح قدر العربيـة السعيدة أن تكون مجزأة، وتابعـة، يقول كارل بروكلمان: «إن النبي ﷺ كان قبل وفـاته بقليل، قد نشر الأمن في هذا البلد. ولكن عـماله لم يأخذوا مكان الحكام المحليين، ولكنهم ظلوا إلى جـانبهم كما لو أنهم المقـيمون الذين تضعـهم القوى الاسـتعمـارية الحديثـة لدى الأمراء المحليين». وبعـد وفاة النبي ﷺ،

اهتزت أركان الدولة الإسلامية. وتمرد اليمن إبان خلافة علي رضي الله عنه، في محاولة لاستعادة استقلاله. ولكن الاضطرابات أُخمدت بشدة، وظلت اليمن إسلامية. وكانت في ظل الخلافة الأولى مقسومة إلى ثلاث ولايات. وفي عام ٨٩٣م، تأسست الفرقة الشيعية الزيدية فيها، أسستها أسرة من السادة في الشمال. كانت سلطة الإمام الزيدي في البداية لا تكاد تتعدى أسوار العاصمة. وعندما تفككت أواصر الخلافة في القرن العاشر الميلادي، كانت اليمن، وبقية أجزاء العربية الجنوبية أول المنفصلين عنها. وانقسمت المنطقة إلى مجموعة من الإمارات المتنافسة، التي كان بينها صراع لا يتوقف من أجل السيادة. وحارب الزيديون بلا كلل ولا ملل، في محاولة لفرض سيادتهم، التي ظلت حتى العصر الحديث اسمية أكثر منها فعلية. وتحملت القبائل الجنوبية، وقبائل حضرموت، التي ظلت متمسكة بالمذهب الشافعي، بصبر نافد[١١٦] سيادة الزيديين المطلقة. وعلى الرغم من ذلك، كان الأمراء الوطنيون يتناسون خصوماتهم عندما يتعرضون لخطر أجنبي، وكانوا يتعاونون على مواجهة ذلك الخطر.

ومنذ الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى السادس عشر الميلادي، جدد المصريون، والبرتغاليون، والهولنديون، والبريطانيون، والأتراك، محاولة الرومان السيطرة على العربية التي كانت تسمى السعيدة. وشهدت نهاية القرن الثاني عشر الميلادي دخول جيوش صلاح الدين الأيوبي تلك البلاد. ثم دخلها الأثيوبيون، وتلاهم مماليك مصر. وفي عام ١٥١٣م، أخفق الملازم البرتغالي المشهور البوكيرك[١] Albuquerque في احتلال عدن، ولكنه احتل المُخا. وأقام البرتغاليون

(١) أفونسو دي البوكيرك Affonso De Al Buquerque عسكري برتغالي جاء مع الحملة البرتغالية الكبرى معاوناً لقائدها تريستو دي كونها في ١٨/ ٤/ ١٥٠٦م، وقام بعدد من المذابح على ساحل عُمان وغيرها من بلاد المسلمين في أنحائها، وأصبح نائباً لملك البرتغال في الهند في ٥/ ١١/ ١٥٠٩م. وتوفي في ١٥/ ١٢/ ١٥١٥م. انظر تفصيلات أوسع عن مغامراته وإخفاقه في احتلال عدن كتاب: العرب والبرتغال في التاريخ، د. فالح حنظل، منشورات المجمع الثقافي في أبو ظبي ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ١٦٧- ٢٤٤(المترجم).

القلاع على طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، حتى الخليج العربي. وقد طردهم من هذه السواحل المصريون ، كما أجبرهم العرب والفرس على مغادرة قلاعهم في الشرق. ولما احتل العثمانيون مصر، اعترفت العربية الجنوبية التابعة لها بسيادة الباب العالي. ووصل العثمانيون إلى اليمن عام ١٥٢٨م، ولكنهم كانوا بحاجة إلى أربعين سنة من المعارك لفرض سيطرتهم عليه. ثم شهدت هذه السيطرة نهايتها إثر ثورة شعبية عارمة عام ١٦٢٨م. وبعد خروج العثمانيين، وقعت البلاد فريسة النزاعات الداخلية. وفي عام ١٧٠٣م، انفصلت حضرموت عن اليمن، بعد أن كانت تابعة له اسمياً. وجاء دور«المقاطعات التسع» الجنوبية، ومن بينها سلطنة لحج، لتعلن عام ١٧٢٨م، خروجها على طاعة الإمام الزيدي في صنعاء.

وفي أثناء ذلك أدى اكتشاف البن إلى تدعيم اقتصاد البلد من جديد. ويُعتقد أن اكتشاف البن في العربية السعيدة، كان بفضل أحد الرعاة العرب، الذي لاحظ أن قطيع الماعز الذي يرعاه أصبح أكثر حيوية بعدما رعت أوراق شجيرة بعينها. وسرعان ما غطت شجيرات البن منحدرات اليمن، وأصبحت ثمارها تصدر عبر ميناء المخا، الواقع على البحر الأحمر، والذي اكتسب شهرة عالمية بفضل هذه التجارة الجديدة. وقد كان للهولنديين خلال فترة من الزمن وكالة تجارية في هذا الميناء، وأبرم الفرنسيون اتفاقية تجارية مع الحكومة التي تدير المخا باسم الإمام.

لقد ازدادت حدة التنافس بين القوى البحرية المهتمة بطريق الهند. أما شركة الهند الشرقية البريطانية، التي كانت تسعى إلى إقامة [١١٧]محطة فحم حجري على طريق الهند، فبدأت ترنو إلى المكلا وسقطرة، ثم تفاوضت عام ١٨٠٣م مع سلطان لحج بشأن استخدام ثغر عدن لهذه الغاية. وفي عام ١٨٣٩م، استغل البريطانيون حادثة أسعفتهم بها السماء، عندما عومل بعض الرعايا البريطانيين معاملة سيئة، فقامت البوارج البحرية الملكية باحتلال عدن. وبعد محاولتين فاشلتين قام بهما سلطان لحج لاستردادها، انتهى به الأمر إلى الإقرار بوجود البريطانيين.

كان قلب الجزيرة العربية في هذه الأثناء، يشهد أحداثاً جساماً. إذ أدى ازدهار الوهابية إلى تدخل القوات المصرية التي أرسلها محمد علي. واحتلت قوات إبراهيم باشا اليمن بعد معارك طاحنة، وتنازل الإمام بعد الاستيلاء على صنعاء، عاصمته. وجلت القوات المصرية عن صنعاء في عام ١٨٤٠م، وحلت محلها القوات العثمانية، التي لم تبق فيها مدة طويلة بسبب العصيان الشعبي. ولكنها استمرت، مع ذلك، في احتلال المناطق الساحلية، وبعض الأماكن الحصينة، التي كانت تتعرض لغارات رجال الجبال اليمنيين، الأشداء، الذين لا يعرفون اليأس أو الهزيمة. كانت اليمن، بين ١٨٤٠م و ١٩١٨م، ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية تبعية مباشرة، واستطاع الأتراك الذين كانوا دوماً على أُهبة الاستعداد للحرب، في عام ١٨٧٢م، الاستيلاء من جديد على صنعاء، وعلى القسم الأكبر من البلاد، وأقاموا فيها حكومة عسكرية. وفجأة انفجر التمرد الذي كان يزمجر على الدوام على فترات، صراعاً مفتوحاً، وقام الإمام يحيى في أحد أيام سنة ١٩٠٥م بهجوم على صنعاء، على رأس جماعة من المسلحين، وحقق النصر بعد حصار عنيف، وأعلن رسمياً سيطرته على العاصمة، قبل أن يتوجه لمتابعة القتال. وفي عام ١٩١١م ، أقرت معاهدة دهان بالإمام يحيى ملكاً على اليمن، تحت السيادة العثمانية. ولم يقف البريطانيون في جنوب الولاية العثمانية مكتوفي الأيدي. بل توغلوا في حملاتهم إلى مناطق عدن الداخلية، ووجدوا فيها إمارات محلية صغيرة، كان أمراؤها مستعدين لقبول «الحماية» البريطانية مقابل مساعدة بالمال والسلاح. ونتج عن ذلك توقيع اتفاقيات الحماية بين التاج البريطاني وبين زعماء «المقاطعات التسع»، وحضرموت بين عامي ١٨١٧ و ١٩١٥م، وأصبح القسم الأكبر من العربية الجنوبية خاضعاً لسيادة نائب الملك البريطاني في الهند، الذي كانت عدن تابعة له. ومن الجدير بالذكر أن أغلب الأراضي وصلت إلى الحالة التي هي عليها، [١١٨] عندما قامت، في عام ١٩٠٤م، لجنة بريطانية-تركية

بترسيم الحدود بين ولاية اليمن، والمقاطعات التسع التابعة لبريطانيا. واعتمد ذلك كله في المعاهدة البريطانية-العثمانية، التي وقعت في لندن ١٩١٤م[١] .

تلك كانت حالة اليمن قبل الحرب العالمية الأولى، التي ظل الإمام خلالها مخلصاً لحلفائه العثمانيين، وجاءت القوات العثمانية-اليمنية خلالها، في عام ١٩١٥م، لتعسكر أمام عدن حتى نهاية الحرب. أما البريطانيون فقد حصنوا قواعدهم، وقصف الأسطول الملكي الحديدة، واحتل جزيرة كمران. وبعد اندحار العثمانيين في الحرب، جلت قواتهم عن اليمن، وأصبح مستقلاً.

النفوذ البريطاني

منذ استقلال اليمن أصبح مصير كل منطقة من المناطق، التي تتكون منها العربية السعيدة، يسير في اتجاه مختلف. ويُعد عام ١٩٣٤م عاماً حاسماً بسبب المعاهدة السعودية-اليمنية، التي وقعت في أبها[١]، والمعاهدة البريطانية-اليمنية، التي وُقِّعت في صنعاء(١١ فبراير«شباط» ١٩٣٤م). لقد حاول البريطانيون بشتى الوسائل إدراج اليمن في منطقة نفوذهم، ولما أعياهم ذلك، قاموا بغارة جوية لدحر قوات الإمام إلى ما وراء حدود ١٩٠٤م. ثم استغل البريطانيون بعد ذلك مشكلات اليمن مع السعودية، جارته الشمالية. فبينما كانت الحرب السعودية-اليمنية مشتعلة، وقع الكولونيل (الذي حصل على لقب سير Sir بعد ذلك) برنارد رايلي Bernard Reilly حاكم عدن، اتفاقاً يعترف الإمام بموجبه بالوضع الراهن على الحدود الجنوبية «بانتظار مفاوضات جديدة»؛ واتُّفق على أن مدة اتفاقية صنعاء أربعون عاماً. وقد كان ذلك نصراً مؤزراً للبريطانيين، الذين كافئوا محقق ذلك النصر، فمنحه الملك لقب فارس. وانصرف البريطانيون، الذين أصبحوا من الآن فصاعداً مطلقي الأيدي، إلى تنظيم الأراضي في تسع مقاطعات. وقد ضموها إلى حضرموت، وشكل كل

(١) انظر رسالتي: السياسة البريطانية في العربية الجنوبية، م.س.

(٢) أشرنا من قبل أنها تعرف بمعاهدة الطائف ووقعت في الطائف وليس في أبها (المنيف).

ذلك، ابتداء من عام ١٩٣٧م، ما يعرف بمحمية عدن. وقد فرق قرار إداري لاحق بين المحمية الغربية التي تتكون من المقاطعات التسع القديمة، وبين المحمية الشرقية [١١٩] التي تضم حضرموت، ومنطقتين أقل أهمية؛ هما الواحدي[١] التي تقع إلى الشرق، والمهرة التي تقع إلى الغرب.

أما في اليمن فقد كان على الإمام أن يخوض صراعاً طويلاً للقضاء على عصيان القبائل المتمردة في الجنوب. وقد استطاع ولده سيف الإسلام(وهو لقب الأمراء اليمنيين من ذوي الأصول الملكية) أن يقضي على ثورة الزرانيق المتمردين. ويمكننا القول: إن السلام عاد إلى اليمن منذ عام ١٩٣٠م. لقد أقر الإمام، بعد مغامرته ضد الملك عبد العزيز آل سعود، بحدوده الشمالية، ولكن التوسع البريطاني في الجنوب هو الذي كان يقلقه ويهدده. ولم يعترف بادئ ذي بدء بشرعية الوجود البريطاني في عدن؛ خوفاً من أن يتغلغل النفوذ الأجنبي في قلب البلاد اليمنية التابعة له. ومنذ حصوله على الاستقلال، حدد الإمام لنفسه هدفاً، تمثل في استعادة «المقاطعات التسع». ولما حاولت قواته السيطرة على إمارة الضالع أجبرتها القوات الجوية الملكية البريطانية على إخلائها. وقد حاولت إيطاليا الفاشية الاستفادة من عداء العاهل العربي لبريطانيا؛ فكانت الدولة الأولى التي اعترفت عام ١٩٢٦م باستقلال اليمن، مما أثار قلق البريطانيين. وشهد عام ١٩٢٩م دخول روسيا السوفيتية حلبة المنافسة بدورها، فوقعت مع الإمام اتفاقية الصداقة والتجارة. أما اليابان فقد عقدت علاقات تجارية، سرعان ما شهدت تطوراً في عام ١٩٣٣م. ولم تضع اتفاقية صنعاء عام ١٩٣٤م حداً نهائياً للمناوشات، التي كانت تفسد العلاقات البريطانية-اليمنية. إلا أن الاعتراف بحدود معينة، يعد قاعدة مرجعية للخلافات بين الطرفين. ولكن الترسيمات التي وضعها البريطانيون والأتراك، واعترف بها الإمام، لم تكن لسوء الحظ تشمل إلا ثلث الحدود الوهمية الفاصلة بين اليمن والأراضي الخاضعة للحماية

(١) نسبة إلى الأسرة الحاكمة«آل عبد الواحد»، وعاصمتها عزّان، وميناؤها بلحاف.

البريطانيـة. لقد أصبح الانفراج الذي حـققه التوصل إلى توقـيع الاتفاقية البـريطانية اليمنـية على المحك، عندمـا بدأت سلطات عدن بالتـغلغل إلى الداخل في الأراضي التي ليس فـيهـا حـدود واضحـة. ووقعت في عـام ١٩٣٧م خـلافات بين اليـمنيين والبريطانيين [١٢٠]، على إثر صدور المرسوم المـلكي، الذي حدد بموجبه نائب الملك جورج الخامس ما أصبح يعرف منذ اللحظة «محمـية عدن». ارتفعت الاحتجاجات، واندلعت الاضطرابات، بشأن السيادة على القبائل البدوية في المناطق الحدودية. ويعني قولنا: «مناطق حدودية » حزامـاً من الأراضي، يتراوح عرضه بين ٥٠ إلى ١٠٠ كم. لقد كان مـفهوم الحدود أكـثر دقة في أذهان البريطانيين. وفي عـام ١٩٣٨م، احتلت قوات تتألف من بريطانيين، ومن محليين، بقيادة المقيم السياسي هاملتونHamilton، منطقة شبوة، وضمتها إلى ممتلكات العـرش البريطاني، وتشكل شبوة الزاوية الشمالية الغربية من شكل المسـتطيل، الذي تأخذه المحمية الـشرقية. وقد كان اعـتراض الإمام شخصـياً، عنيفاً، ونرى أن السر في ذلك: مـا ذكره هاملتون-الذي أصبح فيـما بعد اللورد بلهافن Master of Belhaven في كتاب ظهر بعد عشر سنوات، من أنه لاحظ نضيض البترول عندما احتلت قواته شبوة[1] . ولما كانت السلطات البريطانية في عدن عاجزة عن إيجاد مسوغ لضم شبوة باتفاقيـة، فإنها جعلت الضم يأخذ مظهراً شرعياً، عندما احـتجت بوجود مجـرد اتفاق شفـوي مع القبائل البدويـة التي تسكن المنطقة، يضع هذه القبائل تحت حـماية التاج البريطاني. أما الإمام الذي كـان ينكر ذلك، فقد كان يرى أن البريطانيين أخلوا بعهودهم.

أما العلاقات بـين اليمن وإيطاليا تحت حكم موسوليني، فقـد ظلت جيدة. إلا أن الاعتداءات الإيـطالية على أثيوبيا في الجـهة المقابلة، أقلقت الإمـام، وكان أعوان الدوتشي بحاجة إلى كل براعتهم الدبلوماسية ليستطيعوا طمأنة الإمام. لقد كانوا على أهبة الاستعداد، وخصوصاً بعد الاتفـاقية الإيطالية-اليمنية الجديدة عام ١٩٣٧م، التي

(١) ماستر أوف بلهافن(المقدم هاملتون): مملكة ميلكيور Melchior جون ميري John Murray، لندن، ١٩٤٩م. وانظر روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، الترجمة العربية، ص ١٦٤-١٦٥ (المترجم).

تلاها وصول عـــدد مـــن البـعثات «التقنية»، والطبيـة الإيطالية إلى اليمن[1] . وفي عام ١٩٣٨م، أرسل السوفييت بعثة جديدة إلى اليـمن، وجددوا معه الاتفاقية السابقة لعشر سنوات جديدة. أما اليـابانيون فقد حاولوا عن طريق (الجمعيـة اليابانية-اليمنية) تمتين علاقـاتهم بمملكة جنوب الجزيرة العربيـة. وحاولت دول المحور إزعـاج بريطانيا وفرنسا، الموجـودتين على جانبي باب المندب [١٢١]، في عدن وجيبـوتي. وقد كان ضغطهم يزداد، كلما اشتـد التوتر في أوروبا. ولكن الدبلوماسية البريطانيـة-الفرنسية حصلت من الإمام على تصريح أعلن فيه حيـاده التام في بداية الحرب العالمية الثانية. وفرنسا التي اعـترفت باستقلال اليمن في عـام ١٩٣٦م، تركت له السيادة على رأس الشيخ سعيد، في أقصى نقطة من الجزيرة العربية على باب المندب.

انقلابان

كـان التنافس على أشـده خـلال الحـرب العـالمية الثـانيـة، بين دول المحـور، والإيطاليون خـصوصاً، وبين البريطانيين لكسب ود الإمـام يحيى، غير أنه ظـل وفياً لوعده بالوقوف على الحياد. وقد أحسن نصحه وزير خارجيته، وهو دبلوماسي تركي عتيق، عمل في باريس وسان بطرسبرغ، ويتحدث فرنسية بطلاقة. إنه القاضي راغب بيك، عرَّاب الاتفاقـية اليمنية-الأمريكيـة، كما كان وجوده في صنعاء مـصدر طمأنينة للفرنسيين المقيمين فيها. وبعد الحرب بدأت الدول العظمى الموجودة في اليمن تتنافس من جديد على تدعيم نفوذها فيه، اليمن الذي أصـبح عضواً في جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥م. وفي سبتمبر«أيلول» ١٩٤٧م، قُبلت اليمن عضواً في الأمم المتحدة.

لقد كان اغـتيال الإمام يحـيى في ١٧ فبراير«شبـاط» ١٩٤٨م، نقطة تحول في تطور اليمن. دبر هذا الانقـلاب الأمير إبراهيم على رأس عدد من المنفـيين اليمنيين، وأعلن أسـيـاد اليمن الجـدد بعـد الانقـلاب عزمـهم على السـيـر ببلدهم في طريق

(١) إنريكو دو ليون : Enrico DE LEONE العلاقات الإيطالية اليمنية، بادوفا، سيدام Cedam، ١٩٥٦م.

الإصلاحات، والتعاون الوثيق مع الغرب. غير أن انتصارهم لم يدم طويلاً: إذ استطاع الأمير أحمد على رأس قبائل الشمال الموالية له، هزيمة المنشقين في ثلاثة أسابيع، واعتلى عرش أبيه. وخيب ظن أولئك الذين عقدوا الآمال عليه؛ فقد اختار سياسة الحذر، ولم يفتح بلاده على الخارج إلا شيئاً فشيئاً، ولم يسع إلى تحديث هياكل دولته التي تعود إلى زمن ما قبل الإقطاعية إلا ببطيء شديد. أما انقلاب أبريل«نيسان» عام ١٩٥٥م، الذي قام به أيضاً أمراء من أنصار الإصلاحات الشاملة والعميقة، فإنه دفع سيد العربية التي كانت سعيدة إلى التبصر. [١٢٢] لقد قام بالانقلاب الفاشل أخواه عبد الله وعباس، اللذان كانا مقتنعين كل القناعة بضرورة التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. وإذا كان الإمام أحمد قد حافظ على عرشه، فإنه عرف مصدر الخطر، فاندفع بتؤدة في الطريق التي أراد أخواه الاندفاع بها بسرعة.

الحالة الإنسانية في اليمن

إن ما تحقق في اليمن هذه الأيام ، تحقق على مستوى السياسة الخارجية، إذ انفتحت ثغرة في الموقف الانعزالي الخالص. أما في داخل البلاد فمازال النظام يحكم قبضته إحكاماً شديداً على مواطنيه. هل يعد ذلك من سوء طالعهم ؟ إن انطواءهم على أنفسهم قديم، ومن العسير إطلاق حكم بهذا الخصوص. ومهما يكن من أمر، فإنه لم يعد بالإمكان إنكار سوء الحالة المادية للسكان، هذه الحالة التي تتوافر إمكانية تحسينها تحسناً ملموساً. تصف الدكتورة سوزان سوران Suzanne Serin التي زارت اليمن عام ١٩٤٦م، قبل أن تُرسل إليه البعثة الطبية الفرنسية، الحالة الصحية لليمنيين بأوصاف مؤلمة، لم يتغير منها شيء حتى اليوم. يجري الحديث عن استيطان الأمراض الوبائية المدارية كلها، والتي يساعد على انتشارها، وتحولها إلى أوبئة، انعدام أبسط مبادئ النظافة. إن نقص الغذاء، وسوءه، ينهك أجساد السكان، ويعرضهم لأخطار

تكالب الأمراض عليهم. والمجاعة لا يمكن تفاديها عندما تكون الغلة غير كافية في المناطق التي يصعب الوصول إليها لانعدام طرق المواصلات. وتصل نسبة الموت بين الأطفال إلى ٩٠٪ [١] .

ويُروِّح اليمني عن نفسه بسهولة أمام هذا الفقر المدقع بفضل «الإدمان الوطني» على القات، ولكن ذلك يزيد حالته سوءاً. لا يمكن الحديث عن اليمن دون ذكر الكارثة الوطنية المتمثلة في القات. يشيع استخدام القات على جانبي باب المندب كليهما، في العربية الجنوبية، وفي الصومال الفرنسي وفي إثيوبيا [٢] . والقات[٣] أوراق لدنة لنبتة جنبية [١٢٣] يتم مضغها طازجة لتبعث الانشراح في النفس، وتطرد النوم عن الجفون. ولما تُجْمَع الحزم الخضراء تُنْقل بالطائرة، وتباع بأسعار مرتفعة. تتوقف الأعمال في اليمن في بداية ما بعد الظهيرة تقريباً: ويبدأ الناس مجتمعين مضغ أوراق القات! وإن أفقر اليمنيين يحرم نفسه من الغذاء ليحصل على المخدر الذي يمنحه نشوة هادئة. ولكنه يدفع ثمن هذه المتعة اليومية اضطرابات معدية، ومعوية مؤلمة. إن استخدام القات باستمرار يُضْعف القسم الأعظم من السكان، الذين يغرقون في البلادة والخمول التام عدة ساعات في اليوم. وعلى إثر زيارة الدكتورة سوران لليمن، تتابع الأطباء الفرنسيون عليه، مسخرين علمهم لخدمة سكانه الظرفاء، متفانين في ذلك. وقد قضى طبيب الصحة العامة ريبوليه Ribollet نحبه دون ذلك، بعد أن بدأ ببناء مستشفى جديد، في تعز، ولم يمهله القدر ليراه منتهياً. ونذكر أيضاً بعثتيْ السيدة كلودي فاييان Claudie Fayein، التي ألفت عن اليمن كتاباً جيداً، والآنسة

(١) سوزان سوران، « حول الحالة الصحية في العربية اليمنية»، نشرة أكاديمية الطب، رقم ٣٩-٤٠، باريس، ١٩٤٦م، ص ٧٢٣ .

(٢) لقد تم في نهاية الأمر منعه في جيبوتي، ثم في عدن.

(٣) ذكر المؤلف اسمه العلمي وهو: .Cate Edulis وقال الدباغ، ج١، ص ٢٣٧-٢٣٨(الحاشية): شجر القات لا يزهر، ويشبه بعض الشبه الحور الصغير. ويبلغ طول شجرته أحياناً خمسة أمتار. ويزرعه أهل اليمن في بساتين المناطق المعتدلة البرودة، مثل أشجار الثمار. . . وتوجد منه أنواع مختلفة تختلف أسماؤها باختلاف المكان الذي تغرس فيه، فهناك القات الصنعاوي والتعزي. والقات الحبشي أقوى أنواعه وأشدها أثراً (المترجم).

لانسوا Lansoy، اللتين حققتا لفرنسا نجاحاً كبيراً. كما استطاعت الآنسة هيرمن Hermann، معاونة الدكتور ريبوليه، أن تقيم في اليمن خمس سنوات في اليمن، وتعمل بشجاعة نادرة. إن ضخامة العمل تحتاج إلى جيش من الأطباء، ولا تكفيه بعض البعثات التي لا تتجدد إلا نادراً، لأن ظروفها ليس فيها ما يشجع على الانخراط في صفوفها، إلا لأولئك الذين يتذوقون حياة الرهبانية. وحتى هؤلاء، ينبغي عليهم تجاوز عقبات كثيرة. ويقدم لنا طبيب العيون الشهير، الدكتور غولوفين Golovine مثالاً صارخاً على ذلك. فهو مع زوجته وحدهما يمثلان البعثة الطبية الفرنسية منذ عام ١٩٥٦م، وهو الذي نجح، لأول مرة في العالم، في إجراء عملية تطعيم قرنية عين القرد. واضطر إلى التوقف عن إجراء تلك العمليات، وعن إجراء تجارب جديدة، بسبب المنع الذي صدر عن السلطات الدينية. ولكنه، مع ذلك، ظل في تعز، يعالج حالات الرمد الحبيبي(التراخوما) الكثيرة.

إن المستوى الثقافي في اليمن ليس أفضل من المستوى الصحي، ناهيك عن أن كل أولئك الذين يصبحون على وعي بالتخلف الذي يفرضه الإمام على البلد، يرحلون عنه، ليزيدوا عدد المهاجرين، ويحرمون البلد بذلك من[١٢٤] النخبة المثقفة. وقد شكل اليمنيون في البلاد الأجنبية جمعيات نشيطة، تروج دعاية قاسية ضد الإمام، ونظامه الاستبدادي. إن التجارب التي أجرتها السيدة فاييان-التي هي اثنولوجية وطبيبة في الوقت نفسه، دلت على أن نسبة الذكاء الفطري لدى اليمنيين مشابهة وموازية لتلك التي نجدها لدى أكثر الشعوب تقدماً، بل إنهم يتمتعون في كثير من الأحيان برهافة ومرونة في الحكم على الأشياء لا تجارى. إن التركيب الاجتماعي في اليمن، هو أيضاً عقبة لا تقل عن غيرها من العقبات التي تقف عائقاً في سبيل تحقيق ذات الفرد.

كتب البروفيسور غواتان[١] S. D. Goiten قائلاً: إن التركيب الاجتماعي

(١) س. د. غواتان، مجلة هتسيونوت بِشاعا زو، الصهيونية المعاصرة Hatsionouth Be Chaa Zo، القدس، ١٩٥١م (بالعبرية).

الحالي لليمن، هو إحدى مخلفات حضارته القديمة، وهو يشبه في نواحٍ كثيرة تركيب مجتمع الطبقات المغلقة، أي الطبقات التي تتمايز بوضوح في المجالات كلها، الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية. فالطبقة السامية تتكون من السادة، الذين اشتهروا بأنهم من «سلالة النبي ﷺ»، وهم في غالب الأحيان من كبار ملاَّك العقارات، أو أنهم يتقاضون مخصصات وظائف إدارية وهمية. أما الفلاحون، وأصحاب المهن اليدوية، وأبناء الرقيق، والقبائل البدوية، فإن كل فئة منهم تشكل طبقة خاصة، منغلقة، ووراثية، وتؤدي وظيفة معينة. وينتظم أصحاب المهن جمعيات، لها في غالب الأحيان نفوذ قوي. والفلاحون هم أكثر الطبقات فقراً: إن الفلاح، كما هي القاعدة في الشرق، مرتبط بالأرض بسبب الدين والربا، ويعيش في حالة تشبه العبودية. وليس أمام الفقراء المعدمين إلا مخرج واحد؛ أن يصبحوا عسكراً، في صفوف مرتزقة الإمام. ويمكن القول: إن حالة العبيد الذين مازلنا نجدهم في اليمن لدى العائلات الموسرة، هي بالتأكيد أفضل من حالة الفلاحين المعوزين.

تلك هي حالة اليمن، العربية التي كانت سعيدة، والتي يمكنها أن تكون كذلك من جديد. إن السادة، الذين يخافون من التطور، الذي يمكن أن يجعلهم يخسرون كل شيء، يعارضون أي إصلاحات. ويعتمد الإمام العجوز، المريض على مجموعة من أكثر رعاياه انعزالية، للمحافظة على عرشه المهدد بحملات المنفيين. إن التركيب السياسي- الاجتماعي لليمن في منتصف القرن العشرين، نموذج نادر لنظام ملكي مطلق، يعود إلى ما قبل عهد الإقطاع.

[١٢٥] الفصل التاسع
في ظل حكـــم الإمام-المـــلك

يحمل العـاهل الزيدي، شأنه شـأن أسلافـه منذ القرن التاسـع الميلادي، لقب إمام. وفي هذا دلالة واضـحة على الطبـيعة الروحـية الأساسـية لمنصبـه السامي: إن الإمام حبر كبـير، زعيم فرقته، يساوي لدى الزيديين، آغا خـان عند الإسماعيليين. فهو الزعيم الروحي الأعلى، والحاكم الدنيوي المطلق أيضاً.

إنه «السيـد الوحيد بعـد الله»، على مملكته وشـعبه، وكل مـا يملك. إننا أمام مملكة في أقصى درجات المركزية، يمكن مقارنتها باليابان القديمة أو بالتيبت. إن الحاكم هو الحَبْر- الملك، ويبدو أن البلد عـرف ذلك في تاريخه القديم. إذ هناك تشابه يلفت النظر بين لقب ملوك اليـمن، واللقب الذي كان يحمله الإمـبراطور الحمـيري، تُبَّع، نظراً لأن كلمة إمام، وكلمة تُبَّع، تعنيان «الشخص الذي يسير في المقدمة». إن الأئمة منذ تأسيس الأسرة الزيدية في صعدة عام ٨٩٣م، حكموا قسماً كبيراً نسبياً من العربية السعـيدة. إن الاختـلاف المذهبي بين الزيديين، وبين الأغلبيـة الشافـعية في العـربية الجنوبية، يمكن أن يفـسر عجـز سادة اليمن عن أن يجـعلوا قبائل المنطقـة كلها تلتف حول عرشـهم. ومن المتفق عليه أن أتباع المذهب الزيدي في اليـمن أقلية، وإن كان ذلك بنسبة ضئيلة. ولكنهم يسـيطرون على البلاد، ويحتلون الوظائف الإدارية كلها، مهما كـانت أهميتها، ويحتـفظون [١٢٦] بالعرش على وجه الخصوص. إن الحـقيقة التي تفرض نفسـها هنا، أكثر من المملكة العربيـة السعودية، هي أن التنظيم الإداري، والسياسي، والقضائي في البلد، لا يوازي شيئاً أمام مشيئة الملك. ولا يمكن اتخاذ أي قرار مهما كان بسيطاً دون الموافقة الملكية.

خلف الإمام الحالي، أحمد بن يحيى بن مـحمد حميد الدين، والده بعد ثورة عام ١٩٤٨م، واستـعاد عرشه بعـد صراع مرير. وتلقبـه الرعية، لدهائه وشجـاعته،

أحمد الجن[1]، وقد سبق له أن كان قائداً عاماً لجيوش والده الإمام، واستطاع حينئذ دحر قبائل الزرانيق الثائرة في منطقة تهامة القائظة. ثم سُمِّي بعد ذلك ولياً للعهد، وحاكماً لمنطقة تعز، وكُلِّف بإدارة الثغور الجنوبية للمملكة، ، وهي أكثر المناطق احتكاكاً مع محمية عدن البريطانية. ولما خلف والده اختار الإمام أحمد أن يجعل تعز عاصمته، تاركاً صنعاء التي، وإن كانت حصينة، فإنها غير مخلصة له، صنعاء التي استباحتها قواته بعد انتهاء العصيان. إنه يدير شؤون البلاد من حصنه المنيع في سلا، على بعد عدة كيلومترات من المدينة، ولا يفوته منها لا شاردة ولا واردة. ويعتقد الناس أنه يمتلك قدرات خارقة، وقد زادت الأحداث هذا الاعتقاد رسوخاً، عندما تمكن بها أحمد الجن من استعادة العرش الذي فقده بعد انقلاب عام ١٩٥٥م. لقد كان أخوه عبد الله يحاصره، على رأس ألفي رجل، ووجد نفسه في ٣٠ مارس«آذار» مضطراً إلى إصدار بيان يعلن فيه تكليف أخيه بتصريف الأمور العادية بسبب صحته المتدهورة. ولما علم في ٣ أبريل«نيسان» أن ابنه البدر بدأ، بتشجيع الملك سعود وتأييده، يحشد القبائل الموالية له في شمال البلاد، ولاحظ أن هناك تردداً في صفوف الذين انقلبوا عليه. هب في فجر اليوم التالي، وصعد فجأة إلى سطح قصره المحاصر، يحيط به عدد من الجنود، ثم قفز وراء رشاش، وفتح نيرانه الغزيرة على المتمردين. بعدها، فقد المحاصرون معنوياتهم، استسلم بعضهم، وفر القسم الآخر. وانتهت خمسة أيام ظلت فيها المملكة بلا ملك. وظل أحمد الجن إمام اليمن وملكه.

[١٢٧] حكومة صاحب الجلالة

كانت هذه الثورة الفاشلة إنذاراً للملك؛ وحملت بعض مواطنيه المخلصين له، والمقتنعين بفكرة الإصلاح الضرورية، أن الإمام أحمد سيتبع طريقة جديدة في الحكم. ولكن النظام القديم، فيما عدا بعض مظاهر التجديد الشكلية مثل تشكيل «مجلس للوزراء» ظل على حاله، ولم يبق أمام «دعاة التقدم» إلا الهجرة، وأمام

(١) الصحيح أن لقبه في تهامة باللهجة الدارجة: أحمد واجناه. لاعتقادهم أن الجن تخدمه (المنيف).

المعتدلين إلا أن يعقدوا آمالهم على ولي العهد سيف الإسلام البدر، الذي بدأ يفرض نفسه. وهو أمل خداع، لأن أحمد كان أيام حكم والده يحيى يعدُّ أميراً تقدمياً، سيُحدِّث المملكة. ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً عندما اعتلى العرش، وفت حكمه في عضد النخبة المثقفة، وخصوصاً الشافعية، الذين ضيق عليهم الموظفون الزيديون الخناق. إن المسؤولين في كل الدرجات، ينتمون جميعاً إلى المذهب الزيدي. وفي الدرجة الأعلى، تسيطر جماعة «السادة»، الذين لا يُعزلون، ويتراوح عددهم بين ٢٠ إلى ٣٠ ألف، وهم أثرياء، مكللون بالمجد، يمثلون طبقة النبلاء. وفي القمة، يتربع الإمام، ويقرر كل شيء، محاطاً ببعض المستشارين الذين يثق فيهم.

كيف تعمل هذه الحكومة الفردية من النمط النادر ؟ تعطينا السيدة كلودي فاييان فكرة بديعة عن ذلك، عندما تكتب قائلة عن «نظام الكتابة للإمام»: «لا تكاد الحياة الرسمية للملك تنفصل عن حياته الخاصة. فهو لا يأتي إلى قصر الحكومة في تعز إلا من أجل الاستقبالات الرسمية والاحتفالات، أما مجالسه العادية فتنعقد في سلا. وفي هذه الحالة، يظل الملك جالساً متربعاً على عرشه، وكأنه أحد السلاطين الأتراك، لكي يستطيع القادم، إذا كان من عامة الناس، أن يتظاهر بأنه يقبل نعل حذائه. أما جلسات مجلس الوزراء فتكاد تنعقد هنا يومياً، وفي الليل غالباً. . .إنها جلسة كئيبة، لا تبغ فيها ولا قات، ولا أحد يتكلم فيها إلا إذا بادره الإمام بالحديث. . .

يتألف المجلس من حوالي خمسة عشر شخصاً يجلسون القرفصاء على أرائك ملتصقة بالجدران. ويجلس بالقرب من الملك رئيس مجلس وزرائه، الذي يفض الرسائل، ويعطيها الملك. ذلك أن نظام الكتابة للإمام،هو الأمر المميز [١٢٨] في هذه الحكومة. إن من يود التخلص من بطئ الإدارة المحلية، وروتينيتها، يمكنه أن يعرض قضيته على الملك من أي مركز للبريد، وهذا يكلفه بعض الثلرات thalers [1] لإرسال برقية مدفوعة الرسوم في الذهاب والإياب،. وهو بهذا الثمن يكون واثقاً من

(١) يعرف هذا النقد بثالر، وهو نمساوي كما يعرف بريال ماريا تيريزا، اشتهر في الجزيرة العربية بأكملها بالريال الفرنسي كما كان يعرف عند بعضهم بـ أبوطاقة. وعنه انظر : تطور النقود في المملكة العربية السعودية، قوسسة النقد العربي السعودي، ١٤١٩هـ، ص١٩ (المنيف).

أن الملك سينظر في قضيته. . . ويستطيع الملك، كما يقال، أن يستعرض أكثر من مئتي برقية في جلسة واحدة. ويعد هذا الأمر مورداً لا يستهان به لخزينة الدولة، التي تغذيها الرسوم الجمركية، ورسوم الامتيازات، وضريبة العشور التي تُجْبى على المحاصيل، يقوم بجبايتها «جباة عامون». ترى ما طبيعة القضايا التي تُعرض على الملك ؟ كل القضايا بلا استثناء، وحكمه فيها لا استئناف عليه، سواء كانت الأمور هامة أو تافهة. . . لقد حكم الأئمة قبله بهذه الطريقة، وإذا لم يحكم بالطريقة نفسها فسيشعر بأنه أدنى مرتبة منهم[1] .

كان الإمام، قبل انقلاب عام ١٩٥٥م، قد أوكل بعض المهام الوزارية لإخوته، فقد كان عبد الله، الذي حرض على التمرد، وزيراً للخارجية، وحسن كان رئيساً للوزراء، ونائب الملك في صنعاء. وبعد التمرد أُعدم عبد الله وعباس في الوقت نفسه، أما حسن فهو يعيش في المنفى المقنع، يمثل بلاده في الخارج، وخصوصاً في المنظمات الدولية. أما الحكومة التي شُكلت في ٣١ أغسطس« آب» ١٩٥٥م، التي يرأسها الإمام أحمد نفسه، ويتولى ولي العهد، الأمير سيف الإسلام محمد البدر، أهم المناصب فيها، فهو نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير الدفاع، والخارجية. ويبدو أن مشاركة ولي العهد في إدارة شؤون الدولة تتسع يوماً بعد يوم، وخصوصاً في مجال العلاقات الخارجية. ولكن الملك-الإمام يظل هو صاحب الأمر والنهي، حتى في أبسط الأمور الجزئية. ينقسم اليمن إلى ست مقاطعات، يحكمها الأمراء، وتقسم إلى نواحٍ، يديرها عمال؛ ويتلقى هؤلاء جميعاً الأوامر البرقية من الملك في أي لحظة. إن كل الأمور التي لا تدخل في إطار ضيق، محدد المعالم من قبل، يخضع لأوامر جلالة الإمام الخاصة.

(١) كلودي فاليان، م. س.

[١٢٩] استبداد وهجـــرة

ليس من الغريب، في مـثل هذه الظروف، أن نرى العديد ممن يتـركون بلادهم بسبب الظروف الاقـتصادية حصـراً، يختلطون بجماعـات من المهاجرين السيـاسيين، الذين يزيدون عدد أفراد الأحزاب الثورية في المنفى. أما في الداخل، حتى في المناطق التي يقطنهـا السنة الشافعـية حصـراً، فإن زمام الأمور في أيـدي الزيديين. ويضمن الإمام هدوء القبائل التي يشك في ولائها، باعتماد نظام الرهائن، الذين يختارهم من أبناء زعـمـاء تلك القبـائل. والجـيش النظامي هو حـشـد من المرتزقـة. وفي فتـرة الاضطرابات، كما حصل في عام ١٩٤٨م و ١٩٥٥م، يطلب الملك قوات من القبائل الموالية له في الشمال؛ في منطقة حجة، إذ يمكن لقـبيلتي حاشد وبكيل استنفار قوات تصل إلى مئة ألف رجل. ويعاني الإسـماعيلية والشافعيـة من هذا النظام بصبر نافد. ويهاجر هؤلاء على وجه الخصوص، ويقـودون من الخارج المعارضة ضد الإمام. وإن أكثر الأحزاب نشاطاً، هو حزب «اليمنيـون الأحرار»، ومركزه في عدن، ويلقى دعماً قوياً من الجماعات اليمنية في الصومال وإثيوبيا، وإريتريا، ومصر. ويمتلك أنصاراً في أماكن بعيدة، نجد بعضهم بين أفضل عـمال السفن في ليفربول وكارديف. أما القاهرة فـهي واحدة من المقـرات الفكرية لليـمنيين الأحرار. وعلى أية حـال، وسواء كـانوا أعضاء في حزب اليمنيين الأحرار أو أعضاء في جمعية اليمن الكبير، إن كل مواطني الإمام التقدميين المقيمين في الخارج، يصبون جام انتقاداتهم اللاذعة على العقبات التي يضعـها الإمـام في طريق تقدم البـلاد وتطورها. ولا تتـردد بعض جمـاعات هؤلاء التقدميين في إظهار اسـتعدادها، كما كان يفعل الأمراء العصـاة، لتسوية النزاع سلمياً مع بريطانيا حول «المقاطعات التسع» التابعة لمحمية عدن، وهم، كما لا يمكن أن نشك في ذلك، يلقون دعم بريطانيا.

إن الصحافة الصادرة بالعربية أو بالإنجليزية في مستعمرة عدن، والتي تفرد حيزاً

واسعاً للقضايا اليمنية، تتضمن غالباً هجوماً عنيفاً ضد سياسة الإمام. تقول صحيفة الفضول، الصادرة في ٢٦ ديسمبر« كانون الأول» ١٩٥٢م: «إن اليمن مستقل، ولكن استبداد [١٣٠]حكامه، يجعله في حالة سيئة كل السوء. . .إن عدد اليمنيين الذين تركوا بلادهم سعياً للحرية، وبحثاً عن حياة لائقة، كريمة، يزيد على مليون و ١٢٥ ألفاً. إن قضية اليمن هي قضية القرن العشرين، وإن اللاجئ الحقيقي في عصرنا هو اليمني ».

ليس بالإمكان إصدار حكم قطعي في هذا المجال-وهذا مما لا يخفى-، ولكن الدور الذي تؤديه جماعات المهاجرين في أحداث البلاد الداخلية، لا ريب فيه. ويحملنا توافق المصالح على الظن أن البريطانيين كانوا وراء ثورتي ١٩٤٨م و ١٩٥٥م. فالانقلاب الذي بدأ باغتيال الإمام يحيى في ١٧ فبراير«شباط»، خطط له ونفذه أحد المخلصين له، وهو عراقي اسمه عبد الله الوزير، الذي كان على اتصال وثيق، واتفاق كامل مع جماعة من الثوريين اليمنيين المقيمين في عدن، ويتزعمهم الأمير إبراهيم، أحد أبناء الإمام يحيى نفسه. وما كاد الأمير إبراهيم هذا يصل بالطائرة إلى صنعاء بعد بداية العصيان، حتى قُتِل هو وأنصاره في التصفيات التي أعقبت انتصار أحمد الجن. وفي عام ١٩٥٥م، جاءت الثورة التي دعا إليها عبد الله وعباس في غير أوانها، مع أن ميولهم البريطانية، ومناصرتهم المعروفة لها، كان ينبغي أن يؤمن لهم دعمها. وقد ذكرت صحيفة **الجمهورية** المصرية، الصادرة في ١٧أبريل، أن زعيم الانقلاب درس في الأكاديمية العسكرية في بغداد.

إن المآخذ التي يأخذها اليمنيون المهاجرون، والتقدميون على نظام الحكم القائم في اليمن عديدة ومتنوعة: استئثار الزيديين بالوظائف القيادية؛ غياب أبسط أشكال الحريات؛ عدالة بدائية، وقاسية، وعجولة؛ مركزية مفرطة تجعل الإصلاحات، التي بدأها الإمام بطيئة، وتبعث اليأس في النفوس.

كيف يمكن لملك عدد سكان مملكته خمسة ملايين نسمة، أن يقرر شخصياً ما ينبغي اتخاذه لإصدار تأشيرة، أو لإصدار إذن بشراء عشرين لتراً من الوقود، أو لشراء طائرة جديدة، أو لإعدام مجرم ؟ إن الأمور لا تتقدم على وجه من الوجوه، إلا بمقدار ما يكون السيد عالماً بها.

ولكن أخطر [١٣١]ما يشكو منه مواطنو الإمام، وأكثره أثراً، الذي يمكن أن يكون سببها جميعاً، هو الإصرار على إبقاء البلد في حالة ركود اقتصادي وثقافي، في حين أن الدلائل كلها كانت تَعِدُ بتطور زاهر، يليق بمكانة اليمن في التاريخ القديم.

ليس من شك في أن التطور، والإنماء الاقتصادي في البلاد المسماة نامية، ينبغي أن يكون متناسقاً ومضبوطاً، وأن يكون هدفه الأول إيجاد نوع من المواءمة بين رفع مستوى المعيشة، والتفعيل المادي والعقلي لشعب من الشعوب. أجل، إن بعض الاعتدال، والتأني المدروس أمر مستحب في غالب الأحيان. أما في حالة اليمن، فإن الأمراض المنتشرة فيه، وكبر سن الإمام انعكسا على أوضاع البلاد. إن مرحلة التردد الحتمية، التي تمر بها البلاد والشعوب المتخلفة، قبل أن تسير على طريق التقدم، زادها في اليمن سوء عدم أهلية أيٍ كان لاتخاذ قرار دون العودة للملك.

وعلى الرغم مما سبق، لقد تحققت في السنوات الأخيرة، على استحياء، بعض الإصلاحات في اليمن المحرمة. إن القرن العشرين، قرن الآلات،والتهافت على المواد الأولية، والأسواق الجديدة، بدأ يفعل فعله، وبأت أمواجه تزداد عتواً عند سفوح الجبال العالية التي تحجب وراءها قلب العربية الخضراء، كسور الصين العظيم. والفجوة التي حدثت في هذه الجبال بدأت تسمح لبعض هذه الأمواج بأن تتسرب إلى الداخل. وإذا كان مدها المطلوب ما يزال ضعيفاً، فإن الخطوات الأولى لاستغلال الموارد الطبيعية لمملكة الأئمة الزيديين العريقة قد بدأت. ربما يكون ذلك بداية محاولة للقضاء على الفقر والشقاء اللذين يطردان اليمنيين من وديانهم وجبالهم منذ خمسة عشر قرناً.

بن المخا وفراء اليمن

أجمع الخبراء، من كل الاختصاصات، الذين تتابعوا على زيارة اليمن منذ عدة سنوات، لحصر موارده بناء على طلب الإمام، على أن اليمن بلد ذو إمكانيات اقتصادية ضخمة. وفي هذا السياق، نشر أحد المهندسين الفرنسيين، السيد أندريه غورلان André Gourlin، بعد أن أقام في اليمن مدة طويلة، مقالات رزينة، وموجزة، ما تزال [١٣٢] تحتفظ برصانتها وقيمتها حتى اليوم. وقامت بعثات من جنسيات مختلفة، وبعثات دولية-بينها فريق ضخم من الفاو F. A. O. عام ١٩٥٦م-بسبر العربية السعيدة، وأحصوا إمكانياتها، وقدموا اقتراحات بهذا الخصوص. ولم يعد مجهولاً اليوم أن المشاريع المختارة، والمدروسة بعناية، توسع القاعدة الزراعية، والبنى التحتية اللازمة لأي تطوير اقتصادي. ولم يعد مجهولاً أيضاً أن ثروات اليمن المعدنية تسمح له بالتطلع إلى تصنيعها، والاستفادة من مواده الأولية لتدعيم ميزانها التجاري، ولرفع مستوى المعيشة. غير أن ثروة اليمن الحقيقية، هي شعبه الذكي، الخلاّق، القادر على تحقيق انطلاقة ثورية، شرط أن نساعده على الاستيقاظ من الغفلة التي تغشاه، وأن نمكنه من الوسائل التي تسمح له بذلك. إن اليمن اليوم، يذكرنا باليابان قبل مئة سنة، وبالمغرب في فجر القرن العشرين. إنه لمن الجلي أن اليمن لن يستطيع وحده تدارك التأخر الاقتصادي والثقافي الكبير.

وإن إمكانيات التغيير الجذري في الداخل محدودة بسبب طبيعة النظام، ودرجة تطور السكان. ويبدو أن التدخل الخارجي أصبح حتمياً، وقد بدأنا نرى بوادر ذلك.

يعتمد اليمن اعتماداً جوهرياً على الزراعة، فاليمني مزارع، ومربي ماشية من الطراز الأول، مرتبط بجباله في قراه المعلقة في الأماكن المرتفعة، كرجال القبائل (الجزائر) في مشاتيهم، لقد كان السبئيون القدماء يقومون ببناء سدود ضخمة لكي لا

تغمر المياه المساحات الزراعية الواسعة في الوادي ، وكانوا بعبقريتهم ينقلون مياه الري إلى مسافات بعيدة. وكانت العربية الجنوبية حديقة غناء. أما اليوم، فإن قسماً كبيراً من البلاد بات بوراً لنقص مياه الري. وفي المناطق التي يهطل فيها المطر، أو في تلك التي يمكنها بسهولة الاستفادة من مجاري المياه أو الينابيع، نجد الفلاح اليمني المجد، الصلب، لا يترك قطعة أرض واحدة، مهما كانت صغيرة، دون أن يزرعها. أما في سفوح الجبال العالية، فإن زراعة المدرجات تبدو كأنها سلم يرتفع نحو السماء. وقد تتهدم هذه المرتفعات في بعض الأحيان بسبب غزارة الأمطار الموسمية، ولكن الفلاحين يعيدون بناءها بهمة ونشاط لا يتسرب إليهما اليأس. ويستخدم الفلاحون في المناطق الغنية بالينابيع طرق ري بدائية[١٣٣] .أما طرق الزراعة التي لم تتبدل منذ قرون عديدة فإنها تجبر الفلاح على الزراعة الكثيفة، التي تبدد جهوده. وإن ما هو أكثر ضرراً من ذلك، النظام الإقطاعي الذي يستغل المزارعة وقروض الربا الزراعية، التي تفتك بالمُلاَّك الصغار، وتضع مصير الفلاحة اليمنية بين أيدي الإقطاعيين والمرابين. فهل نعجب، والحالة هذه، إذا هجر اليمنيون الأراضي القديمة المنتجة، وانصرفوا عن الزراعة لأنها ليست بذات مردود فوري ؟

إن قهوة المخا، التي تشكل حتى اليوم، الثروة الرئيسية في البلاد، تشكو من هذه الأوضاع. إن شجيرة القات، التي تُزرع في الأراضي الجبلية نفسها، التي تُزرع فيها شجرة البن اليمني، حلت محلها في بعض أخصب المدرجات الزراعية على الجبال. وزالت مدرجات أخرى بسبب انحسار المناطق المروية. وإذا عرفنا أخيراً أن زراعة البن التقليدية هي عمل المزارعين الصغار، الذين يخضعون لجشع المرابين، عرفنا لماذا يتناقص الإنتاج باستمرار منذ عدة سنوات[١] .

ولما أحس الإمام بالخطر المحدق، طلب من الأمم المتحدة إرسال خبير في إطار برنامج شامل للمساعدة التقنية، لدراسة إمكانيات تحسين زراعة البن. وضمت بعثة

(١) انظر أندريه غورلان، م. س.، و كلودي فاييان، م. س. (ص ١٧١).

الفاو الضخمة التي جاءت إلى اليمن في عام ١٩٥٦م اثني عشر اختصاصياً دولياً في مختلف المجالات الزراعية وتربية المواشي. غير أن تقرير هذه البعثة الذي رُفع للإمام في بداية عام ١٩٥٧م، لم ينشر. وانكبت هذه البعثة أيضاً على مشكلات تحسين طرق تربية حيوانات الفرو. لأن تصدير الجلود اليمنية يأتي في المرتبة الثانية في قائمة صادرات البلد. وهو، بعد البن، أكثر القطاعات أهمية في الاقتصاد الزراعي اليمني، وأعرقها. ويأتي تحسين نوعية الحيوانات، ووضع معايير لمعالجة الجلود الخام، في مقدمة الإجراءات الضرورية التي ينبغي اتخاذها لتحسين طرق التربية، وليكون عمل مربي الماشية مربحاً. وهنا أيضاً، يشكل إلغاء قروض الربا واحداً من شروط التقدم في هذا المجال. [١٣٤] ويعدُّ بناء السدود أولوية تفوق كل الأولويات. لأن إنشاء السدود الكثيرة يمكنه بسرعة أن يُحسن ظروف الزراعة اليمنية. ففي محمية عدن، وفي ظروف أقل ملاءمة عموماً، حققت السلطات البريطانية نتائج جيدة، عندما جعلت بناء السدود وأعمال الري، من الأولويات المطلقة. ولما كان ينبغي التفكير أولاً في تحسين مستوى معيشة السكان في نطاق أعمالهم التقليدية، فإنه ينبغي العودة إلى السر القديم لرعايا ملكة سبأ؛ إنه بناء السدود.

نهاية الأسطورة اليهودية

ليس في اليمن صناعة بالمفهوم الحديث للكلمة. وإن إنشاء مصنع للنسيج في صنعاء، ومعمل للإسمنت في الحديدة، جاء تلبية للحاجات المحلية، وليسا إلا مشروعين متواضعين منفردين. إلا أن الحاجات الملحة أوجدت بعض الصناعات اليدوية، التي شهدت منذ عام ١٩٥٠م، خللاً واضحاً، أثر في الحياة الاقتصادية بكاملها، بسبب هجرة اليهود اليمنيين إلى فلسطين المحتلة. لقد ظل في اليمن يهود بعد خمسة عشر قرناً من ظهور الإسلام، ينتظرون بصبر نافد عودة مملكتهم الضائعة. وجعلهم إيمانهم بذلك، يتحملون كل أنواع الاضطهاد، والعنصرية، التي جعلتهم

طبقة من «المنبوذين» في هذا المجتمع المقسم إلى طبقات. وكما كانت حالة اليهود في بلاد أخرى، اقتصر عملهم على امتهان بعض المهن لأنهم ممنوعون من مزاولة غيرها، وسرعان ما برعوا فيما امتهنوه. وأصبحوا بذلك سادة الحرف اليدوية في العربية الجنوبية. كان عددهم في عام ١٩٤٨م حوالي ٥٠ ألفاً يزاولون المهن اليدوية كلها، ويشكلون عنصراً أساسياً في الاقتصاد اليمني، وفي اقتصاد المقاطعات التسع. كانوا يصنعون، ويصلحون، ويبيعون ألف شيء وشيء من الأشياء النافعة، أو الجميلة، الضرورية أو الكمالية، التي إن اعتاد المرء عليها أصبح غير قادر على التخلي عنها. [١٣٥] مثل النراجيل الضخمة ذوات اللي الطويل، والجنبيات(الخناجر) البسيطة، أو المرصعة بمهارة، والأثواب المطرزة المتعددة الألوان ، والحلى المصنوعة بمهارة، وقطع الأثاث والأدوات المنزلية، والأقفال الخشبية المبتكرة، والأبواب الخشبية التي تُركب عليها، والأحذية والأحزمة المزينة، وكثير من القطع الأخرى التي كان ينتجها صغار الحرفيين، اليهود المهرة، بعملهم المتقن. ولكنهم عندما سمعوا في يوم من الأيام أن المسيح قد عاد، وأن ملك إسرائيل اعتلى عرشه من جديد، ألقوا أدوات عملهم البالية من كثرة الاستخدام، ثم تجمعوا زرافات، وحزموا أمتعتهم، وضموا إلى صدورهم لفائف التوراة، وهاجروا نحو الجنوب، يكتبون رواية جديدة في سفر الخروج. وفي عدن وجدوا في انتظارهم «البساط السحري»، إذ أُقيم على وجه السرعة جسر جوي ليحملهم إلى الوطن الذي وعدهم دينهم به[١] .

كنت في الطرف الأخر للجسر الجوي، عندما وصل الحرفيون اليمنيون في حالة من الفقر المدقع. وبعد عدة سنوات، في عام ١٩٥٤م، أجريت دراسة مطولة عن المشكلات التي تعترض اندماجهم في بلدهم الجديد. وأظن أن إسرائيل التي استقبلت يهود اليمن بحفاوة، اغتنت بمورد بشري لا يقدر بثمن. بينما افتقر اليمن برحيلهم افتقاراً فاق بمراحل كل ما كان متوقعاً.

---

(١) انظر في حولية علم الاجتماع، رسالتي حول« اندماج اليهود اليمنيين في إسرائيل» م. س.-انظر أيضاً سكان إسرائيل ومشكلات اندماجهم الوطني، في التوثيق الفرنسي، باريس، ١٩٥٥م.

لقد كانت فكرة ألمعية من الإمام أن يحتفظ ببعض معلمي المهن اليدوية، الذين علموا مهنهم لبعض المسلمين، قبل أن يُسمح لهم بالرحيل. لقد اختفت بعد رحيل اليهود كل الأشياء التي كانوا ينتجونها، أو أنها أصبحت تُباع بأسعار فاحشة. ولم نعد نجد في أسواق صنعاء الحلي الفضية الجميلة، التي كانوا يصنعونها، ويزخرفونها بمهارة عجيبة، ولا مطرزاتهم الغريبة، الدقيقة الصنع، ولا لوحاتهم ذات الألوان الجميلة، كل ذلك اختفى من اليمن، وظهر في أسواق إسرائيل. يمكن أن يتجاوز الاقتصاد اليمني هذا النزيف الداخلي العميق، ولكن التوازن الداخلي لن يعود أبداً كما كان. ليس من السهولة أن نعوض، في بلد لا صناعة فيه، إنتاج عشرات الآلاف من الحرفيين. ويكمن الحل[١٣٦] في أن نجعل التصنيع نتيجة لتراكم الجهود والمعارف، وليس إدخالاً أهوج للآلة في كل المجالات. فصناعة السجاد الموشى، والنسيج، دب فيها النشاط بفضل التفكير المتعقل. أما إذا أراد اليمن صناعة حقيقية، فعليه أن يبحث عن المساعدات المالية، والتقنية الأجنبية لتحقيق ذلك.

الامتيازات والثروات الطبيعية

لن يكون استثمار الثروات الطبيعية في اليمن، والاستفادة منها اقتصادياً ممكناً إلا بعد إنشاء بنية تحتية لا وجود لها حتى الآن. لقد أنهت شركة بايتنيول Batignolles في عام ١٩٥٦م إنشاء ميناء المخا وتجهيزه، وشقت أيضاً طريقاً بين المخا-تعز، وبدأ العمل في شق طريق أخرى بين تعز وصنعاء. وستقوم مبدئياً شركة أمريكية، اليمن ديفلوبانت كوربوريشين Yemen Development Corporation بشق طرق في المناطق التي تنقب فيها عن البترول. ناهيك عن أن الاتفاقات، التي وقعها اليمن مع الاتحاد السوفيتي، وتشيكوسلوفاكيا، وجمهورية ألمانيا الديموقراطية، تخصص لموضوع تطوير شبكة الطرق البرية، وإنشاء ميناء جديد، حيزاً واسعاً من بنودها. ومن المصانع التي تقضي الاتفاقات بإنشائها، مصنعان للإسمنت يخصص إنتاجهما كله لإنشاء شبكة

الطرق. إن وجود شبكة طرق متطورة هو الشرط الأول من شروط استفادة اليمن من موارده؛ وقد أشار إلى أهمية ذلك عدد من الفنيين، ومنهم المهندس الفرنسي أندريه غورلان André Gourlin في عام ١٩٤٧م، والبعثات التقنية الألمانية، والإيطالية، التي كانت قد بدأت من قبل بالتنقيب في اليمن.

إن التنقيبات الطويلة، التي بدأتها بعثات من مختلف الجنسيات، أفضت في نهاية الأمر إلى مشروعات ضئيلة الأهمية. إن موارد باطن الأرض التي أصبح أولو الاختصاص اليوم يعرفونها على وجه التحديد، متنوعة تنوعاً يسمح بمحاولة استغلالها استغلالاً مربحاً. ويُشار، في هذا الصدد، إلى وجود مناجم حديد غنية في الشمال، في منطقة صعدة. وفي الجنوب، يوجد الفحم الحجري بكثرة [١٣٧]، حتى إنه يبدو على السطح في منحدرات الجبال. ويوجد في الصليف منجم ملح ضخم، كان الأتراك في الماضي يستثمرونه، ثم أُعيد فتحه. ويحتوي ملحه المنجمي على نسبة مرتفعة من كلورات الصوديوم، تجعله يصنف بين أفضل أنواع الملح في العالم. وهناك إشارات عديدة تدل على وجود معادن في المناطق كلها تقريباً: الذهب، والفضة، واليورانيوم، والنحاس، والمغنيزيوم، والبوتاس، ومناجم الملح، وحديد أخرى. ومع ذلك، فإن ما يهم الشركات الأجنبية من بين هذه المعادن كلها في المقام الأول، هو البترول، الذي دلت الدلائل على وجوده في منطقة الصليف على وجه الخصوص. وقد كانت الشركة الألمانية ديلمن برغبو C. Deilmann Bergbau أول الشركات التي حصلت من الإمام في عام ١٩٥٢م على امتياز للتنقيب عنه. وتمتد المنطقة التي يغطيها الامتياز حول مدينة الحديدة في تهامة. ويصبح الاتفاق الذي تم إبرامه لمدة عشرين عاماً، لاغياً إن لم يُكْتشف البترول خلال خمس سنوات.

كان الإمام ينتظر ذلك بصبر نافد. وقد أبدى استعداده للمشاركة مادياً في عمليات التنقيب، ومرت ثلاث سنوات كانت الشركة خلالها عاجزة عن أن تبذل له وعداً بإنتاج كميات تجارية من البترول، على الرغم من أنها أعلنت مراراً وتكراراً عن

«اكتشاف البترول». ونشأت إبان عام ١٩٥٥م خلاف شديد بين الملك وشركائه الألمان، الذين بدؤوا يطالبونه بالأموال لمتابعة عمليات التنقيب. وبعد بضعة أشهر، منح الإمام امتيازاً، مدته ثلاثون سنة، لشركة أمريكية هي يمن ديفلوبمانت كوربوريشن. وشملت منطقة الامتياز ثلثي اليمن في الشمال والشرق، وعلى تخوم الربع الخالي. وقد بدأت العمل على الفور الشركة الأمريكية المشار إليها، التي يرأسها الممول الأمريكي الكبير جورج ألن[1] George E. Allen، ويديرها السيد والتر جيبلير. M. Walter Gibler وانتهت الأعمال الجيولوجية الأولية في النصف الأول من عام ١٩٥٦م، وفي الخريف بدأت عمليات تنقيب جديدة. وأُرسلت أدوات الحفر في سبتمبر«أيلول» من العام نفسه. وفي هذه الأثناء، بلغ سوء التفاهم بين الإمام والألمان، أصحاب الامتياز في تهامة، ذروته، وانتهى إلى إلغاء العقد. وفي الوقت الذي كانت فيه الشركة الأمريكية تعيد النظر في شروط اتفاقها ليكون لصالح اليمن،[١٣٨] أبدت استعدادها لأن تدفع للشركة الألمانية كل ما صرفته، مع الأموال التي يدين لها بها الإمام. وهكذا، بقيت الشركة الأمريكية وحدها، في الفترة الحالية، صاحبة الامتياز للتنقيب عن البترول في اليمن. ويثير هذا التنقيب، كما هي الحال في أماكن أخرى من الجزيرة العربية، بعض الخلافات. وهي حتى الآن، خلافات غير حادة. ولكن حدود هذه المنطقة من العربية السعيدة، التي يتنازع البريطانيون واليمنيون عليها تدخل ضمن المناطق البترولية، بيحان، وشبوة، وعياضة Aiyadha وفي رحاب هذا المثلث الواعد، يعمل فرع من شركة العراق بيتروليوم ، وهو شركة بيتروليوم كونسيسيون ليمتد، صاحبة امتياز التنقيب في محمية عدن كلها.

(١) انظر كتاب الدباغ، ج١، ص ٢٥٠-٢٥١ (المترجم).

الجبلي والاحتكارات الملكية

إن احتكار المبادلات التجارية كلها مظهر من مظاهر النظام السياسي والاقتصادي، لا يمكن تجاهله في اليمن، فقد استطاع واحد من كبار التجار، هو الحاج علي محمد الجبلي، أن يتبوأ في بضع سنوات مركزاً فريداً، وأشرك الملك في كل صفقاته. لقد لامس جشع الإمام العجوز عندما أشركه بنسبة راجحة في كل مشاريعه. وعندما حصل على ثقته، أصبح يمثله شخصياً في كل ما له طابع تجاري أو اقتصادي. إن الجبلي هو حقاً الشخصية المركزية للاقتصاد اليمني.

إن الملك وشريكه يسيطران على تجارة البلد الخارجية كلها، ويحتكران المبادلات الداخلية كلها؛ مثل جمع الجلود، والقات، والبن، والمنتجات الأخرى المعدة للتصدير، ويزيد ذلك سهولة أن الجبلي يسيطر على وسائل النقل كلها. ناهيك عن أنه هو الذي يؤمن تصدير المنتجات التقليدية لليمن، وتسويق الملح المنجمي المستخرج من الصليف. وهو أيضاً مكلف باستيراد القمح، والسكر، والأرز،[١٣٩] والبترول للإضاءة، والنسيج، وكل السلع الأخرى المصنعة، التي يحتاجها اليمن. ويراقب الإمام عبر«عميله التجاري» أدق تفاصيل عمليات التبادل الاقتصادي في البلد، ناهيك عن أنه يجني من ذلك، مباشرة وشخصياً، فوائد مادية كبيرة.

إن الاحتكارات الملكية، عبْر الجبلي، لا تترك إلا هامشاً ضيقاً للمنافسين الجديين الآخرين، من تروستات[١] trusts وكارتلات[٢] cartels من كل الأصناف، وتشكل تهديداً دائماً. إن الهيمنة المطلقة لرجل الثقة عند الإمام يمكن تفسيرها فيما يلي: لقد استطاع صاحبها أن يُشرك أحمد الجن في كل مشروعاته؛ وأكسبه المراس الطويل معرفة تامة بالسوق الداخلي، وفتحت له منافذ الأسواق الخارجية. وإن ما

(١) التروستات هي اتحادات احتكارية بين عدد من الشركات للحد من المنافسة(المترجم).

(٢) الكارتلات اتحادات بين الشركات لاحتكار سلعة ما(المترجم).

يشاع عن فقدانه الحظوة عند الإمام يكذبه الواقع حتى اليوم. فالإمام لا يستطيع إلا بصعوبة، اتخاذ قرار بالتخلي عن هذا التابع المربح.

مع ذلك، فإن العلاقات الاقتصادية الجديدة التي أقامها اليمن في السنوات الأخيرة، يمكن أن تغير من بعض الوجوه تنظيم المبادلات التجارية لليمن. إن العقود الموقعة مع روسيا السوفيتية، وغيرها من الدول الشيوعية، تقضي، ناهيك عن المساعدة التقنية والمالية، تقديم كل ما يحتاجه البلد من معدات وتجهيزات.

إن المساعدة السوفيتية-الشيوعية سرعان ما تُرجمت بالفعل إلى تقديم عدد من شحنات الأسلحة إلى اليمن، وبعد عدة أسابيع انفجرت أعنف اضطرابات عرفتها العربية الجنوبية منذ أربعين سنة.

ومهما يكن أمر حقيقة المساعدة السوفيتية، فإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن لتقف مكتوفة الأيدي. ففي شهر سبتمبر«أيلول» ١٩٥٧م، وصلت إلى صنعاء بعثة اقتصادية أمريكية لتعرض على الإمام مساعدة قدرها مليونا دولار للسنة الأولى، واستقبل الملك هذا العرض بالقبول في بادئ الأمر، ثم رفضه بعد ذلك.

ويبدو أننا اليوم بعيدون كل البعد عن التصريحات الحاسمة للإمام يحيى الذي كان يؤكد أنه يفضل «الاستقلال مع الفقر، على التبعية مع الرفاهية». وكم هي طويلة الطريق التي قطعها اليمن منذ أن رفض الإمام يحيى في عام ١٩٤٧م القرض الأمريكي رفضاً قاطعاً، وصرح أنه يفضل « أن يأكل العشب على أن [١٤٠] يرى الأجانب في بلده، وأن يمنحهم امتيازات». إن القوى العظمى وغيرها، تتعارك للحصول على امتيازات اليمن، وأسواقه. إن نتائج انقسام العالم إلى كتلتين متصارعتين، انعكست على العربية السعيدة. غير أن اليمن، وقد تعلم صيغة«الحياد» عرفت كيف تدفع الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي إلى التنافس. . .وقطف ثمار تلك المنافسة. هل سيحل هذا المبدأ الجديد في السياسة الخارجية محل سياسة العزلة التقليدية في اليمن ؟

ليس من السهل تأكيد ذلك. إن اليمن في واقع الأمر طليعي فيما يخص سياسة«الحياد»، أكثر منه مقلداً. لقد قبل الإمام يحيى بين الحربين، شاكراً، الصداقة الخطرة مع إيطاليا في عهد موسوليني، وصداقة روسيا السوفيتية لمواجهة الضغط البريطاني. وعندما ظن الفاشيون أنه أصبح بإمكانهم التصرف في اليمن كما يتصرفون في إقطاعياتهم، لم يتردد الإمام التقرب من البريطانيين. لقد كان من المهم في نظر أسياد مملكة الجنوب العربية العريقة ألا تستطيع أي قوة وحدها القول: إنها صديقة الإمام وحاميته. وإن المحافظة على التوازن المستمر ضروري لكي يخرج اليمن من انعزاليته التي تجد تفسيرها في تاريخ البلد، وفي طبيعة الأنفة لدى سكان الجبال في العربية الخضراء.

obeikandl.com

[١٤١] الفصل العاشر
العزلة اليمنية وتطورها

في مدينة حجة، قطع جلاد الإمام رأسيْ الأميرين عبد الله وعباس، في ١٣ أبريل«نيسان» ١٩٥٥م، . وكانت أعناق الآخرين ممن شاركوا في التمرد قد دقت في احتفال رسمي، وتباع اليوم الصور الدموية للعقوبة التي حلت بهم ببضعة قروش[١] في أسواق اليمن. وقال الملك أحمد في خطبة العيد الكبير في ٣٠ يوليو«تموز»:

«لقد كان عبد الله ينوي التخلي للبريطانيين نهائياً عن محميات عدن، وأمركة اليمن؛ لقد دفع حياته ثمن خيانته وهذا منتهى العدل!» وبعد ثلاثة أشهر، منح الملك الامتياز البترولي الذي سبق ذكره للشركة الأمريكية يمن ديفلوبمنت كوربوريشين، واصفاً توقيع العقد بأنه «عمل تاريخي». وفي خلال عام ١٩٥٦م، قام ولي العهد بزيارة إلى الاتحاد السوفيتي، وألمانيا الشرقية، وتشيكوسلوفاكيا، وعاد، وفي جعبته عدد كبير من الاتفاقيات ووعود المساعدة. وأصبح التقنيون الأمريكيون، والسوفيت، والإيطاليون، والألمان، والدوليون، يصلون بأعداد متزايدة إلى اليمن. وعادت مشروعات قديمة متواضعة لترى النور. هل سيترك الإمام أحمد الحبل على الغارب لهؤلاء الأجانب الكفار في غزوهم السلمي لبلاده ؟

وقبل أن نحاول الإجابة عن هذا السؤال الأساسي بالنسبة إلى اليمن، ينبغي تلخيص الوضع السياسي-التاريخي لسور الحذر، الذي يحيط بالمملكة، لنقدر قيمته وأهميته. يمكن أن نفسر عداء اليمنيين للأجانب، بالجهل الذي ساعدت العزلة على ترسيخه إرادياً، إنها عزلة يمكن للتاريخ و[١٤٢] الجغرافية السياسية أن تساعدا في فهمها. ولا أظن أن الفلاح اليمني أكثر عداءً للأجانب من الفلاح في منطقة

---

(١) استخدم الكاتب كلمة boukchas (المترجم).

الأوفيرنيا auvergnat (منطقة في فرنسا)، على الرغم من أن لديه أسباباً عديدة ليكون كذلك. لقد كان سكان الجبال في العربية السعيدة، مجبرين، خلال قرون طويلة، على الدفاع عن بلدهم الوعر، ضد كثير من الغزاة، مجندين لدى أمرائهم، مما جعلهم في غاية الحذر من أي «أجنبي». «والأجنبي»، كما يقول المثل اللاتيني القديم، عدو.

إن الحذر المتأصل، وغير العقلاني، لدى الإنسان في مواجهة المجهول، يصبح مبدأ أساسياً في هذه المجتمعات التي لا ترى في الأجنبي إلا جشعه، ورغبته في الاحتلال والسيطرة. وحينئذٍ تظهر الرغبة الفطرية لدى الإنسان في إغلاق بابه، وتحريم بلده على أولئك الذين أظهرت التجربة أنهم لا يحملون شيئاً خيراً. وعندما تكون طبيعة هذا البلد مكونة من جبال عالية، يحيط بها ساحل شبه صحراوي، صعبة المسالك، وليس فيها ما يغري ، ندرك لماذا تتحول العزلة الإرادية طريقة حياة، وتصبح مع مرور الأيام مذهباً وقانوناً. يقول أحد ممثلي اليمن في الأمم المتحدة إن «العزلة التامة توجه سياسية جلالته». ولعله من الأصح الحديث عن انعزالية؛ وأستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى القيمة المذهبية، وإلى الطبيعة الأخلاقية-السياسية للقاعدة التي يقوم عليها مبدأ الانعزال، والتي تسهم على الدوام، في توجيه السياسة الخارجية والداخلية للمملكة الصغيرة في الجنوب العربي.

ولكن هل هناك مبادئ في إدارة الناس والثروات، لا يستطيع الزمن تغييرها ؟ لقد حدثت فرجة في «السور العظيم» الذي يعزل اليمن، وكما حدث لسد مأرب، يمكن أن تكون تلك الفرجة إرهاصاً بانهدام كلي للسور. إن العلم والتقنية تتسلل شيئاً فشيئاً إلى المنطقة المحرمة، وتخترق مناطق الإمام الزيدي الأكثر تحصيناً. وعندما حاول ملك اليمن في عام ١٩٥٧م أن يعقد أول مؤتمراته الصحفية أمام ما يقارب ثلاثين صحفياً أجنبياً، كان المهم ليس الحدث ذاته، وإنما تغير وجهة النظر التي يشير إليها. إنها علامة تقدم، ودليل تطور في موقف كان يبدو ثابتاً لا يتغير. وحدها متابعة هذا التطور، ثم الإسراع فيه، يمكن أن تمنحه معنى حقيقياً.

ولا نستطيع في هذا المضمار[١٤٣] أن ننسى البعثات الأجنبية الضخمة-الإيطالية والسوفيتية على وجه الخصوص- التي جاءت اليمن بين الحربين العالميتين، والتي لم يستطع مرورها في اليمن أن يكسر حاجز الانعزالية. وتظهر بعض الأمثلة الأكثر حداثة أن الإمام متردد في هذا الشأن، فقد أعطى امتيازات، أو عرض بعض الأعمال على الأجانب، ثم تراجع، كالخائف المذعور من النتائج التي تترتب على ذلك. وقد خاض التجربة فريق من الأطباء الفرنسيين، خاطر بالذهاب إلى صنعاء بطلب من الإمام، ولما وصل وجد نفسه ممنوعاً من دخول البلاد. وليست حالتهم هي الحالة الوحيدة في هذا السياق.

اليمن والمغرب الأقصى

إن التطور اليمني يتجاوز نطاق العربية الجنوبية، ولست أدري إن كان ذلك شعور حقيقي، عميق، أو أنه على العكس مجرد تشابه مضلل. إن يمناً متطوراً يستطيع بثرواته الطبيعية، وشعبه المقدام، وموقعه الجغرافي- السياسي، في ظرف سنوات أن يغير ميزان القوى في الشرق الأوسط، وبالتالي، تغيير بعض المعطيات الثابتة في السياسة الدولية. وليس الأمر أكثر استحالة مما كان في اليابان، وإن بعض القرائن تدعو إلى التفكير؛ بعضها يرجع إلى الطبيعة الجسدية والإنسانية، وبعضها الآخر إلى النظام القائم على الدين. هل بالإمكان أن يكون هناك ميجي Meiji يمني؟ إن الظروف التاريخية السياسية هي التي تقرر ذلك. لقد دفع البريطانيون الشعب الياباني إلى الصحوة لكي يفككوا عرى القوة الروسية القيصرية. ولنفترض للحظة، اعتماداً على الحكمة القائلة: إن التاريخ يعيد نفسه، أن روسيا السوفيتية أخذت على عاتقها فكرة دفع اليمن في طريق الصحوة لتقويض الوجود البريطاني في الجزيرة العربية. ليست الفرضية بمستحيلة، وسيتضح لنا ذلك فيما بعد.

ولكن لمَ نذهب بعيداً؟ وهناك مثال بالقرب منا، ولنا فيه تجربة، وقريب من مشاعرنا، وفي فضائنا، إنه التشابه الذي نلاحظه بين المغرب واليمن[1] . فمملكة الأشراف في المغرب، عادت بعد ٤٥ سنة من الوجود الفرنسي، بلداً حيوياً، في تطور متسارع، وستتعزز مكانته [١٤٤] قريباً على المستوى العالمي. أما اليمن فهو اليوم في حالة ركود؛ ولما كان يمتلك الإمكانيات الأساسية، والمقومات الحيوية اللازمة لأي بلد، فإن عربية الأمس السعيدة كلها هي «جميلة تنام في الغابة».

قبل نصف قرن كان في المغرب ظروف مماثلة. فمساحته الواسعة، وسكانه، ومناخه، جغرافيته، تشبه ما في اليمن: الدين والنظام السياسي متشابهان بوجود الإمام- الملك في قيادة الدولة؛ لقد كان هناك نظام الانعزال نفسه بعد ماضٍ عريق؛ وهناك الموقع الاستراتيجي الاستثنائي، فاليمن والمغرب يمتلكان من جهتي قناة السويس، مضيقين من أكثر مضائق العالم حركة، تراقبهما هنا وهناك بعض القلاع البريطانية: جبل طارق والبريم. نشهد نهضة المغرب؛ أما اليمن فينتظر«أميره الجميل». قد يكون روسياً، وربما أمريكياً، ولكنه بالتأكيد لن يكون بريطانياً، ولِمَا لا يكون فرنسياً ؟ إن مجاورتنا اليمن في جيبوتي، ينبغي أن يجعل الواقع اليمني واضحاً بالنسبة إلينا، إنه واقع شعب عظيم في حالة سكون.

العداء لبريطانيا، من ثوابت السياسة الخارجية لليمن

يبدو في تصريحات الإمام اليمني وخطبه الكثيرة ميل إلى عدم الوقوع في التبعية الاقتصادية للأجنبي تحت ستار استثمار الموارد الطبيعية. وينبغي الاعتراف أن

(١) لقد تلمست بعض التشابهات الاجتماعية -الثقافية، والجغرافية -السياسية المحيرة في رسالتي التي قدمتها للمعهد الدولي(م. س.)؛ لقد حرصت على التثبت منها دون أن أحمل النصوص مالا تحتمل، وأنا أشكر للمقدم جوليان بيرتو Julien Bertho أنه حدثني بأفكاره الخصبة والمتسقة. هانس هيلفاريتز(م. س.) كان كما أعتقد أول من قارب بين العربية السعيدة والمغرب.

هناك أمثلة عديدة، تاريخية أو معاصرة، تثبت أن خوف اليمنيين ليس محض خيال. إنه على أية حال اختيار بين أهون الشرين. ويبدو أن اختيار الإمامين يحيى وولده أحمد لا لبس فيه. لأن هذا الأخير لم يحد قيد أنملة عن سياسة والده. ويمكن اختصار خطهما السياسي بكلمات قليلة: انعزالية، وقومية، وحيادية، وشيء من التضامن العربي الإسلامي. ودفعت الضرورة الإمامين بعض الأحيان إلى الانخراط مجبرين في بعض التحالفات، للاقتراب من هدفهم المنشود: طرد البريطانيين من عدن ومن المحمية، اللتين يعدهما اليمنيون جزءاً لا يتجزأ من المملكة الزيدية. وإن تكرار هذا المطلب [١٤٥] وصل إلى درجة الاستحواذ، وهو لا يظهر من خلال الكلام فقط، ولكنه يتعدى ذلك إلى إثارة الاضطرابات الدائمة على الحدود الغائمة للمحمية البريطانية. وما عدا ذلك فإن اليمن يعتمد مبدأ الحيادية، ويقصر علاقاته مع الخارج على الحد الأدنى الذي لا يمكن الاستغناء عنه. ولم تكن هناك خلال فترة حكم الإمام يحيى التي امتدت ثلاثين عاماً (١٩١٨-١٩٤٨م) أي علاقات دبلوماسية دائمة. وفي عام ١٩٥٣م أكد الإمام أحمد بمناسبة عيد الجلوس: «أسمع غالباً بعض الناس يقولون: إن اليمن متخلف، جائع، فقير؛ ولست أنكر الواقع، ولكنني أود أن أسأل هؤلاء المغفلين إذا كانوا يفضلون التقدم مع العبودية والاستعمار».

ولكن هذا الموقف تغير مع مرور الزمن تغيراً ملحوظاً. والمشكلة الوحيدة التي تهم اليمن- استعادة المقاطعات التسع الجنوبية- تتطلب إجراءات أخرى غير الاشتباك بالأيدي والغزوات. وقد أصبح الملك عبد العزيز آل سعود أول حلفاء الإمام بعد حرب قصيرة في عسير، ومعاهدة أبها. في عام ١٩٣٧م، وقع الإمام على معاهدة الأخوة العربية والتحالف التي أُبرمت عام ١٩٣٦م بين العراق والمملكة العربية السعودية. ولما كان الإمام قد أوكل للسعوديين الدفاع عن مصالحه، فإنه أصبح يقاسمهم السياسة الخارجية نفسها. وكانت هذه السياسة حينئذٍ تتمثل في الاحتجاج على السياسية البريطانية الغامضة في فلسطين، تلك السياسة التي كانت تغضب

العرب والصهاينة على السواء. لم نرَ اليمن مطلقاً، شأنه شأن جيرانه، يندفع بهذا القدر من العنف، ولكن الإمام يرى أن التضامن العربي الإسلامي يقوي موقفه في وجه بريطانيا. واكتفى الإمام بإرسال مراقب إلى المؤتمر العربي الذي عُقد في الإسكندرية عام ١٩٤٤م برئاسة الممثلين البريطانيين، ولكنه في ٢٢ مارس«آذار» ١٩٤٥م، انضم إلى جامعة الدول العربية إلى جانب المملكة العربية السعودية، وسورية، ومصر، والأردن، والعراق، ولبنان؛ أما ليبيا والسودان، فقد انضمت إليها فيما بعد.

لقد كان دخول اليمن جامعة الدول العربية[١٤٦]لحظة تاريخية: لأنه وفر لمطالب الإمام مناصرة دولية كانت تنقصه. وسرعان ما تلا دخول اليمن جامعة الدول العربية معاهدة صداقة مصرية يمنية(٢٢ أغسطس«آب» ١٩٤٦م). وفي الجلسة الثالثة للجامعة مارس-أبريل«آذار-نيسان» ١٩٤٦، وافقت اليمن بعد مفاوضات مع مصر على إقامة علاقات دبلوماسية، لم تبدأ إلا في عهد الإمام أحمد، في عام ١٩٥١م. واستجابة لنصائح جاره ابن سعود، وتماشياً مع سياسته، رشح الإمام بلده للانضمام إلى منظمة الأمم المتحدة؛ وقُبِل اليمن عضواً فيها في شهر سبتمبر«أيلول» عام ١٩٤٧م. لقد رفض اليمن، شأنه شأن دول الجامعة العربية الأخرى، قرار تقسيم فلسطين، وأعلن رسمياً حالة الحرب ضد إسرائيل عند إنشائها في ١٥ مايو«أيار» ١٩٤٨م. غير أن إعلان حالة الحرب ظل شكلياً، وما زال البلدان مبدئياً في حالة حرب، إذ لم يصدر أي إعلان بإلغائها. وعلى الرغم من ذلك، فإن أحمد الجن أظهر استقلاليته بالنسبة إلى جامعة الدول العربية، عندما سمح ليهود اليمن بالهجرة إلى إسرائيل. وكان بذلك المسؤول العربي الوحيد الذي اعترف ضمنياً بوجود الدولة اليهودية.

بدأ النفوذ البريطاني بالتراجع في الشرق الأوسط، الهائج بعد الحرب الإسرائيلية العربية. ووجد اليمن فرصة لإعلان تضامنه مع مصر عندما بدأت المفاوضات البريطانية المصرية من جلاء البريطانيين عن مصر، ولم يكن ذلك دعماً

لمصر فقط، ولكنه عداء مستحكم للبريطانيين أيضاً. وفي عام ١٩٥٤م، جاء توقيع حلف بغداد المشؤوم ليمتن أواصر التضامن بين أعداء البريطانية، مصر، وسورية، والمملكة العربية السعودية، واليمن. وظهرت نتائج ذلك في توقيع ميثاق جدة في ١٢ أبريل«نيسان» ١٩٥٦م، وهو تحالف عسكري ثلاثي بين مصر والمملكة العربية السعودية واليمن، وضعت بموجبه القوات المسلحة للدول الثلاث تحت قيادة مصرية موحدة. وقد كان ذلك صفعة مؤلمة لبريطانيا، كما عبرت عن ذلك بمرارة صحيفة التايمز Times، الصادرة في ٢٣ أبريل«نيسان» ١٩٥٦م. غير أن توقيع ميثاق جدة كان له، ناهيك عما سبق، تداعيات أشد خطراً من كل تلك المواثيق العربية التي سبقته، لأن الاتحاد السوفيتي استغل هذا الظرف المناسب لدخول مسرح الأحداث في الشرق الأوسط.

[١٤٧] الدبلوماسية الدولية

لقد سبق للاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٢٨م، أن وجد موطئ قدم في اليمن عبْر إرسال ممثلين مسلمين، وعقد معه اتفاقية تجارة وصداقة. وكان النشاط الإيطالي حينئذٍ يقلق القوى التي تسيطر على البحر الأحمر. فمنذ عام ١٩٢٧م، حتى قبيل الحرب العالمية الثانية، كانت إيطاليا الفاشية، تنعم بمركز ممتاز في العربية الجنوبية الغربية. وعلى الرغم من الاعتداء الفاشي على إثيوبيا، وما تلا ذلك من التوتر، نجح موسوليني بالتوصل عام ١٩٣٧م إلى عقد معاهدة إيطالية-يمنية جديدة، يعترف الإمام بموجبها بالنفوذ الإيطالي في الإمبراطورية الحبشية. ومع ذلك، لم يستطع المقيمون الإيطاليون أن يجروا اليمن إلى جانبهم في الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب عادت عدة بعثات إيطالية إلى الظهور في العربية الجنوبية. وظل الأطباء الذين أرسلهم موسوليني إلى اليمن هناك، حتى وصول البعثة الطبية الفرنسية، حينئذٍ كان الطاقم الطبي لليمن مكوناً من ثلاثة أو أربعة أطباء إيطاليين. لقد شهدت مرحلة ما بعد الحرب وصول قادمين جدد إلى اليمن.

حصلت روسيا السوفيتية في عام ١٩٣٨م، على تجديد معاهدة الصداقة والتجارة مع الإمام لمدة عشر سنوات أخرى. ولكن التوتر الدولي وضع نهاية لهذه العلاقات الطيبة؛ ولم تفلح الجهود المتكررة التي بذلها السوفيت لإعادة العلاقات إلى ما كانت عليه، إلا في عام ١٩٥٦م، عندما حصل ذلك بنجاح منقطع النظير. أما الولايات المتحدة الأمريكية فإنها أرسلت أول بعثة إلى اليمن في عام ١٩٤٦م، برئاسة الكولونيل إدي .Eddy لأن المصالح الأمريكية المتزايدة في الجزيرة العربية لم تعد تسمح لوزارة الخارجية الأمريكية بتجاهل اليمن، وجاءت البعثة الأمريكية إلى صنعاء، وهي تضع نصب عينيها هدفين ثمينين: الاعتراف بالاستقلال التام والمطلق للمملكة اليمنية، وعقد اتفاقية تجارة وصداقة مع الإمام بصيغة مبسطة (executive agreement). واعترضت المفاوضات صعوبات كادت توقفها، ولكن تدخل القاضي راغب بيك، الحاسم، أفضى إلى توقيع الاتفاق الأمريكي-اليمني في ٤ مايو«أيار» ١٩٤٦م، لمدة غير محدودة؛ وهو قابل للرفض[١٤٨] بإشعار كتابي خلال ٣٠ يوماً، أو للقبول بتوقيع معاهدة أكثر تفصيلاً. وبعد هذا الاتفاق، قامت بين البلدين علاقات تجارية ،ودُشِّنت العلاقات الدبلوماسية في عام ١٩٥١م، أي في الوقت نفسه الذي دُشنت فيه مع بريطانيا ومصر. وحصلت البعثة الأثرية التي يقودها ويندل فيليبس Wendell Phillips (American Foundation for the Study of Men) في عام ١٩٥١م على رخصة من الإمام للبدء بأعمال الحفر في منطقة مأرب؛ ولكنها وجدت نفسها، بعد بعض التنقيبات الأولية، مضطرة لوقف أعمالها تاركة كل تجهيزاتها. وليس ذلك إلا لأن السيد فيليبس لم يكن يهتم بالآثار القديمة قدر اهتمامه بالبترول. وفي هذا المجال بالذات، حققت شركة جورج ألن M. George E. Allen ذروة نجاح التغلغل الأمريكي، عندما حصلت من الإمام عام ١٩٥٥م على امتياز للتنقيب عن البترول، مدته ثلاثون عاماً. إن رئيس شركة Yemen Development Corporation

اليمن ديفلومبمانت كوربيريشين (وهو في الوقت نفسه رئيس شركة ربيبليك ستييل Republic Steel)، هو أحد أصدقاء رئيس الولايات المتحدة المقربين، والمستشار المالي شبه الرسمي له. ونستطيع أن نربط بين حصوله على الامتياز، وبين إرسال بعثة أمريكية اقتصادية إلى صنعاء، مكلفة بأن تعرض على الإمام مساعدة مالية في إطار «مشروع إيزنهاور». ألا يشبه هذا الإجراء ما قامت به أرامكو، التي هيأت لحكومة الرياض فرصة الحصول على مساعدة مالية لتثبيت أقدامها في المملكة العربية السعودية؟

لقد بدأ عصر جديد للدبلوماسية اليمنية بعد انقلاب عام ١٩٥٥م. كان عبد الله يلح كل الإلحاح على والده، ثم على أخيه، لتمتين العلاقات وتكثيفها مع العالم الخارجي، وخصوصاً مع الولايات المتحدة وبريطانيا. لذلك عُيِّن على رأس بعثة اليمن في الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٧م، مما أتاح له أن يزور بلاداً كثيرة، أُعجب بتقدمها وحضارتها، على عكس أخيه الكبير حسن الذي كان عدواً لأي إصلاح. كان حسن نائب الملك، وذا حظوة لدى السادة، وكان يعد «الرجل القوي» في اليمن، وزعيم جماعة المحافظين. وكان الأخ الثالث للملك عباس مكلفاً بالعلاقات مع القبائل، واختار أن [١٤٩] يتحالف مع عبد الله، ويقاسمه آراءه. غضب هؤلاء الأمراء، أخوة الملك، عندما قام هذا الأخير بتعيين ولده محمد البدر«ولياً للعهد» في عام ١٩٥٤م، فتمردوا، وإبان التمرد الذي دفع عبد الله وعباس حياتهما ثمناً له، وبينما كان حسن العائد من رحلة إلى ألمانيا، يمثل بلاده في اجتماع رؤساء مجلس الوزراء العرب في القاهرة، أُبلغ رسمياً بمتابعة طريقه لتمثيل بلاده في باندونغ، في أبريل«نيسان» ١٩٥٥م. وفي شهر يونيو«حزيران»، كان الأمير في طوكيو، وبعد أن دعا الإمبراطور الياباني لزيارة اليمن، وقع بالأحرف الأولى على اتفاقية صداقة يابانية-يمنية. ثم ذهب إلى سان فرانسيسكو لحضور الاحتفال بمناسبة العيد الثاني عشر لمنظمة الأمم المتحدة. وبعد أن زار البرازيل، تولى سيف الإسلام حسن رئاسة البعثة اليمنية في الأمم المتحدة. كان الإمام، وهو يمنح أخاه فرصة الاحتكاك بالعالم

الخارجي، يحقق هدفاً مزدوجاً: يزيح من طريق ولده مزاحماً خطيراً في الداخل، ويُضعف المعسكر المعارض للإصلاح. إن الأمير البدر الذي أعلن غير مرة أنه من أنصار إلغاء سياسة الانعزال، عُيِّن نائباً لرئيس مجلس الوزراء، ووزيراً للخارجية في الحكومة التي تم تشكيلها في أغسطس«آب» ١٩٥٥م، منذ ذلك الحين، والأمير البدر يضطلع بمسؤوليات تتزايد بمرور الوقت في تاريخ اليمن الحديث.

التغلغل السوفيتي-الشيوعي

لقد بلغ ولي عهد اليمن قمة مجده الدولية عندما ذهب إلى موسكو في يونيو«حزيران» ١٩٥٦م بدعوة من الماريشال بولغانين Boulganine. وأثار التصريح الذي أدلى به عند مغادرته القاهرة في ١١ يونيو«حزيران» غضب عدد من وزارات الخارجية الغربية، وغيرها، قال محمد البدر بحماسة: «إن الاتحاد السوفيتي هو الصديق المخلص للبلاد العربية كلها». أما ما تلا ذلك فقد أحزن الدبلوماسية الأنجلو-أمريكية كثيراً.

لقد حاول الاتحاد السوفيتي، عبثاً، خلال سنوات عديدة، استئناف العلاقات مع مملكة البحر الأحمر الصغيرة. واستطاع السفير السوفيتي في القاهرة [١٥٠]، السيد كيسليف Kisselev أن يذلل جميع العقبات التي كانت تعترض ذلك، ونجح في مهمته. لقد كانت تجري في العاصمة المصرية مفاوضات مرهقة منذ ما يقارب سنتين، عندما وقع الخبر المثير وقوع الصاعقة؛ يعتزم الاتحاد السوفيتي قريباً تقديم أسلحة لمصر. وبعد شهر، في ٣٠ أكتوبر«تشرين الأول» ١٩٥٥م، وقِّعت بالأحرف الأولى معاهدة الصداقة السوفيتية-اليمنية. وقبل إبرامها رسمياً، توجهت إلى اليمن بعثة سوفيتية، ثم تلتها بعثة تشيكوسلوفاكية، ثم بعثة بولونية. إنها حقبة المد الشيوعي العارم باتجاه العالم العربي، بقيادة السيد شيبيلوف Chepilov، الذي تسلم وزارة الخارجية السوفيتية. وأظهر السيد كيسليف نشاطاً ملحوظاً في القاهرة. ووعد اليمن

بتصريح دون تلـميح، بالدعم السوفيتـي في نزاعها مع بريطانيا من أجل المحـميات. وعندما وقع الإمام في جدة التحالف الثلاثي في ٢١ أبريل«نيسان» ١٩٥٦م، تلقى من السفيـر السوفيتي دعوة لزيارة الاتحـاد السوفيتي. قبل الإمـام الدعوة بلا تردد، ولكنه أعلن أن ابنه ، ولي العهد، ووزير خارجية المملكة، سينوب عنه في الزيارة.

وفي فجر أحـد الأيام المعتدلة من شهـر يونيو«حزيران»، طار محـمد البدر من القاهرة باتجاه موسكو، ثم براغ، ثم برلين الشرقـية: لقد كان أول الحكام العرب الذي زاروا الاتحاد السـوفيتي، وهو على رأس السلطـة، بعد مضي أقل من شـهرين على توجيه الدعوة إليه.

وبعد أن قابل رجـال الدولة السوفيتـية، وقع البدر مع الماريشال بولغـانين بياناً مشتركاً، يتعـهد بموجبه الاتحاد السوفيتي بمساعدة اليمن على تـطوير اقتصادها، بتنفيذ بعض المشاريع العـمرانية، وتزويدها بالمعدات السـوفيتية اللازمـة لذلك. واتفق أيضاً على إقامة علاقـات دبلوماسية دائمة: وعُهِد إلى سفـيري البلدين في القاهرة بأن يمثل كل منهـمـا بلده في مـوسكو وصنـعـاء. ثم توجـه ولي العـهـد بعـد ذلك إلى تشيكوسلوفـاكيا، وألمانيا الشـرقية، فـزار عدداً من المنشآت، وقابل في الوقت نفـسه السلطات في البلدين.

إن الاتفاقات التي عُقدت بين البلدين، تقضي، حـسب تصريحات الأمير البدر والجبلي، أن يقوم الاتحـاد السوفيتي بشق الطرق، [١٥١] وإقـامة الموانئ، التي تُسدد تكاليفـها خلال عشـر سنوات، وبأسعار تقل بنسـبة ٣٠٪ عن الأسعار العـالمية. وإن روسيا مستعـدة لتمويل مشروعات لتطوير الاقتصاد اليمنـي، ووعدت بتقديم المساعدة التقنية اللازمة لذلك. أمـا تشيكوسلوفاكيا فالتزمت من جهتـها ببناء مصنع للإسمنت في تهامة، وبتقديم التقنيين اللازمين لدفع عجلة الصناعـة اليمنية، وباستقبال الطلاب اليمنيين في جامـعاتها. وتنوي ألمانيا الشـرقية بناء مصنع للإسـمنت، وأخر للزجاج، وثالث لتعليب الفواكـه المجففة، ورابع لدباغة الجلود، على أساس المبـادلة التجارية.

وتعهدت برلين الشرقية وموسكو، ناهيك عما سبق، بإقامة ميناء في الحُدَيْدَة أو اللحيّة، بتكلفة قدرها ٤ ملايين جنيه إسترليني. ومن الجدير بالذكر هنا، أن تهدم ميناء الحديدة من جراء القصف البريطاني في عام ١٩١٧م، جعل مبادلات اليمن التجارية تحت رحمة بريطانيا، سيدة عدن،وهو الميناء الوحيد الصالح للاستخدام منذ فترة طويلة. وظلت الحال كذلك حتى عام ١٩٥٦م عندما جرى تنظيف ميناء المخا من الرمال، وأصبح بإمكانه استقبال السفن الصغيرة، ومن بينها سفن الشركة البحرية اليمنية. إن شق الطرق، وإقامة الموانئ، إذا اقترن باتساع أفق المسؤولين، يمكن أن يؤدي إلى قلب الحياة في اليمن رأساً على عقب.

إن تقارب الإمام مع الدول الشيوعية في الوقت الحاضر، ناهيك عن اعترافه في أغسطس«آب» ١٩٥٦م بجمهورية الصين الشعبية، كان له أثر واضح في تدهور العلاقات البريطانية- الأمريكية. لقد بدأت صحف الجنوب العربي (عدن) منذ شهر نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٦م، تنشر معلومات كثيرة، وتفصيلات عن السفن المحملة بالأسلحة، التي يقدمها السوفييت لليمن. وبعد عدة أشهر وجدت وزارة الخارجية البريطانية نفسها مجبرة على «الإعلان»، تحت ضغوط برلمانية، أن المعسكر الشيوعي أرسل إلى اليمن« ست أو سبع سفن، محملة بأنواع مختلفة من الأسلحة». ووجهت الاتهامات لطيارين أمريكيين يعملون لحساب شركات خاصة لأنهم نقلوا إلى اليمن أسلحة شيوعية. وظهر في يناير و فبراير « كانون الثاني و شباط» ١٩٥٧م الدليل الحاسم على أن اليمن تلقى أسلحة، عندما وصلت الاضطرابات التي تزامنت مع الحدث، على حدود محمية عدن، حداً لم تشهده من قبل. ويصبح الأمر [١٥٢] أقل غرابة، إذا وضعناه في السياق الدولي للحقبة التي حدث فيها.

وفي نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٦م، أغضب العدوان الفرنسي-البريطاني-الإسرائيلي على بور سعيد الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي معاً. وأدان العالم كله «الاعتداء الاستعماري»، الذي قامت به فرنسا وبريطانيا، ولم تواجه

بريطانيا في تاريخها انتقادات مثل اليوم، ولم تنحط سمعتها إلى مثل ما انحطت إليه إثر العدوان. لقد قررت روسيا السوفيتية، لتشغل الرأي العام العالمي عن الأحداث الدامية في المجر، أن تشجع أي نزاع، في أي منطقة من العالم. ولاقى إحياء الخلافات القديمة بين بريطانيا واليمن تشجيع المسؤولين السوفييت وتهليلهم. ولم تفت المراقبين الإشارة إلى المشاورات شبه اليومية، التي كانت تجري بين سفراء الاتحاد السوفيتي واليمن ومصر في أكثر فترات التوتر في العربية الجنوبية حرجاً.

تدهور النزاع البريطاني-اليمني

بدأ كل شيء، وكأنه حادث روتيني صغير، كتلك الأحداث المتفاوتة في الخطورة، التي كانت تحدث منذ ما يقارب أربعين سنة. وجرياً على الطبيعة التقليدية لمثل هذه الأحداث، اشتبك بعض اليمنيين مع مرتزقة المحميات. ولما حقق اليمنيون-من متطوعين وقوات نظامية-تقدماً، كُلفت القوى الجوية الملكية البريطانية في عدن بإزاحتهم عن مواقعهم. وقام الإمام مباشرة بعد ذلك، في بداية يناير«كانون الثاني» ١٩٥٧م بملء الصحافة العالمية بالاحتجاجات، متهماً بريطانيا بقصف المدن اليمنية(والمحمية كلها هي على أية حال يمنية في نظر الإمام). شكوى للأمم المتحدة، مبادرة عربية مشتركة في واشنطن. واتسع نطاق المعارك، وشمل مناطق جديدة، ورد بريطاني رداً عشوائياً، وتدهور الوضع في أسبوع واحد، حتى اضطرت السلطات البريطانية إلى إرسال نجدات عسكرية جديدة بطريق الجو، ومطاردات نفاثة إلى عدن. وأعلنت وزارة الخارجية البريطانية أن الوضع«أكثر خطراً » مما يبدو. وفي ١٣ يناير«كانون الثاني»، أعلن الإمام أن بريطانيا أخلت بعهودها مع اليمن، وبالتالي، فإنه يعد نفسه في حل من أي التزام تفرضه بنود اتفاقيتيْ عاميْ ١٩٣٤ و ١٩٥١م. وأعلنت لندن[١٥٣] أن هذا الإلغاء من جانب واحد غير مقبول، وأصبحت قاعدة عدن التي وصلتها إمدادات ضخمة، المقر الرئيسي لعمليات القوات البريطانية في

الجزيرة العربية. وتتالى القصف، والعمليات البرية حتى شهر فبراير«شباط». وفي ٩ فبراير«شباط»، عقد أحمد الجن أول مؤتمراته الصحفية، واستدعى الصحفيين الأجانب، وقد خصت صحيفة البرافدا Pravda، وراديو موسكو هذا المؤتمر باهتمام فائق. وأعاد الإمام على مسامع موفدي الصحف العالمية، تصريحات طالما كررها، ولكنها تحظى للمرة الأولى بمثل هذا الاهتمام الكبير.

مرة أخرى، استطاع العنف البريطاني أن يتغلب على الروح النضالية اليمنية. ولكن الخلاف اليوم صار أقرب من أي وقت مضى إلى التدويل؛ هدف اليمن الذي يسعى إليه. أعلنت الحكومة البريطانية في ٢٣ فبراير«شباط»، في بيان رسمي، أنها تدرس« الإجراءات اللاحقة التي ينبغي اتخاذها لمواجهة التهديد اليمني المتصاعد». وفي الوقت نفسه، عرضت لندن على الإمام عقد مؤتمر لتسوية المشكلات المعلقة. ولكن الحكومة اليمنية أجابت بأنه لما كانت لا تعترف، في حال من الأحوال، بشرعية الوجود البريطاني في«اليمن المحتل»، فإن مثل تلك المفاوضات لا حظ لها في التوصل إلى شيء. يرى اليمنيون أن أراضي «المقاطعات التسع» القديمة جزء لا يتجزأ من اليمن، يحتلها الإمبرياليون البريطانيون. والأمر نفسه ينطبق على جزيرة كمران، مقابل الصليف في البحر الأحمر، التي يطالب اليمن بها كلها.

كانت جزيرة كمران محجراً صحياً دولياً قديماً للحجاج، ثم قامت بريطانيا بضمها، وربطتها إدارياً بمستعمرتها في عدن عام ١٩٤٩م، ثم منحت الامتياز البترولي فيها لفرع من شركة بريتيش بيتروليوم. وأثار هذا الإجراء الأخير حفيظة اليمن، الذي أعلن نيته تقديم شكوى أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي La Haye.

وفي سياق عام ١٩٥٧م، بدا أن حدة الاضطرابات قد خفت، ولكن الاشتباكات لم تنقطع. إلا أن وجود الطائرات النفاثة للقوى الجوية الملكية البريطانية، ومجموعات التدخل المحمولة جواً، حدَّ من اتساع [١٥٤] تلك الحوادث. لقد استطاعت الحكومة البريطانية، ووزارة الخارجية أن تقدرا، خلال زيارة الأمير البدر

لبريطانيا في ١١ و١٢ نوفمبر« تشرين الثاني» ١٩٥٧م، عمق الهوة التي تفصل بين المواقف البريطانية واليمنية. وكانت لندن تعلم أن الوقت يعمل لصالح اليمن، وأن النفوذ السوفيتي في العربية الجنوبية موجه ضد المصالح البريطانية.

«الغياب» الفرنسي

ليس لموقف فرنسا السلبي من النزاع البريطاني اليمني ما يسوغه. إن هدف السياسة الخارجية اليمنية هو محاولة كسب مناصرين جدد لقضيتها؛ وقد حاولت في غير مناسبة الحصول على أسلحة من فرنسا.

وفي سبتمبر«أيلول» ١٩٥٧م، رفضت فرنسا تقديم ذخائر وأسلحة خفيفة لليمن، بعد مشاورات مع بريطانيا، وعجزها عن الحصول على وعد من الإمام بعدم استخدام الأسلحة الفرنسية المطلوبة ضد البريطانيين[١]. ومع ذلك، وناهيك عن هذه السياسة التي يمكن أن نصفها بأنها عدوانية، فإن اليمن كان يستحق من فرنسا اهتماماً أكثر. هذا البلد الصغير، الواعد، بحاجة إلى أطباء، وتقنيين في المجالات كلها، ولمساعدات اقتصادية، ومالية غير مشروطة؛ لأن العمل الذي لا مصلحة وراءه، هو وحده الذي يؤتي ثماره على المدى الطويل، ولأن حياة الشعوب والبلاد لا تقاس بعدد السنين، كما هي الحال لدى البشر.

لقد ثبت لنا من قبل أن البعثة الطبية الفرنسية، وفرت لفرنسا، في اليمن، رأسمال ضخم من المحبة والإعجاب، لم يستطع ما ارتكبناه من شطط في شمال إفريقيا أن يبدده. إنه أجمل فصول العلاقات اليمنية-الفرنسية، الوحيد الذي يبقى في الذاكرة. ويبدو أن هناك إرهاصات بشرت بهذا الموقف: فأول الأوروبيين الذين

(١) بعد شهرين من ذلك التاريخ، قامت بريطانيا بتزويد تونس عن طريق الجو بأسلحة كانت فرنسا قد رفضت تزويد اليمن بمثلها.

حصلوا في العصر الحديث على رخصة لدخول قلب العربية السعيدة، هو طبيب فرنسي، جراح في سلاح البحرية، [١٥٥] استدعاه الإمام عام ١٧٠٩م ليجري له عملية لإزالة دمل في الأذن. وفي عام ١٩٤٦م، طلب ولي العهد الأمير أحمد، الذي أصبح اليوم إماماً، من القنصل الفرنسي في عدن إرسال طبيبة فرنسية لمعالجة إحدى نسائه. فجاءت الطبيبة الفرنسية سوزان سوران، وهي طبيبة مقيمة في مستشفيات الصحة النفسية، وأقامت في اليمن ستة أسابيع، عادت بعدها، وهي تحمل طلباً لإرسال بعثة طبية فرنسية. ذهبت البعثة الطبية الفرنسية إلى اليمن، وأدت مهمتها على أحسن وجه، على الرغم من بعض المصاعب، ونقص في الأطباء. وقد ترك الطبيب العام ريبوليه Ribollet، الذي مات بمرض أصابه خلال عمله، في اليمن ذكرى عطرة، لتفانيه في العمل. وقد أكسبه ذلك ثقة الإمام الذي كلفه ببناء مستشفى جديد في تعز وتجهيزه. وبعد موت الطبيب ريبوليه، قامت طبيبة وإثنولوجية فرنسية شابة وحدها بمهمة البعثة الطبية الفرنسية. وتابعت بلا كلل ولا ملل، العمل الإنساني لسلفها، على الرغم من نقص الأدوية والمنشآت.

وقد حققت إقامة الآنسة فاييان في اليمن نجاحاً باهراً لفرنسا، شأنها شأن إقامة الآنسة لانسوا Lansoy؛ وكان رحيلها سيعرض مشروعاً عظيماً لخطر التداعي، مشروعاً يليق بالتقاليد الإنسانية لفرنسا. ولحسن الحظ أن البروفيسور رودلير Rudler ومساعده الدكتور مولر Muller عملا في اليمن لمدة شهر في عام ١٩٥٢م. وأعاد نجاحهم إحياء ذكرى الدكتور ريبوليه. ولما عاد البروفيسور رودلير إلى فرنسا أقنع الدكتورين غولوفين ولامبير Golovine et Lambert بالذهاب إلى اليمن. وبعد رحيل الدكتور لامبير، الذي كان يعمل في صنعاء، ظل الدكتور غولوفين، تساعده زوجته، في تعز الممثل الوحيد للبعثة الطبية الفرنسية.

إن الأجور والتسهيلات التي تُقدمها الحكومة اليمنية للأطباء الفرنسيين لا تكفي لترغيب غيرهم في المجيء إلى اليمن. ولكن أين هم المسؤولون عن الدبلوماسية

الفرنسية، ولمَ لا يبذلون أي جهد لمساعدة الإمام ؟ إن فرنسا، التي تعد نفسها قوة إسلامية كبرى، ولها تجربة وتقليد مجيدين في هذا المجال، هي أيضاً أقرب جار لليمن، فهي موجودة على الساحل الصومالي. وفي جيبوتي، التي يقيم فيها عدد كبير من اليمنيين [١٥٦]، وينبغي لكل هذا أن يجعلها تهتم بالشؤون اليمنية. فالضباط والموظفون الفرنسيون يجتازون غالباً مضيق باب المندب للذهاب إلى بلد الإمام؛ ويقوم التجار والمهربون بنقل البضائع من الساحل الفرنسي إلى الساحل اليمني؛ وتطلب اليمن من بعض الشركات الفرنسية أن تعمل هناك.

إن سلبية الموقف الفرنسي من اليمن لا تفسير لها. علماً أن الجمهورية الفرنسية اعترفت باستقلال اليمن، وعقدت مع الإمام بعد ذلك معاهدة صداقة في ٢٥ أبريل «نيسان» ١٩٣٦م. وفي عام ١٩٤٦م، اعتُمِد السفير الفرنسي في المملكة العربية السعودية سفيراً في اليمن أيضاً، وكان بهذه الصفة، يقوم بزيارتين في السنة للإمام، طالما كانت هناك سفارة في جدة. وقد شغل منصب قنصل فرنسا في عدن لفترة طويلة، موظف فرنسي نشيط، هو السيد ستيبانوف هارتل Stepanof Hartel، الذي كان متضلعاً من شؤون العربية الجنوبية. ولست أدري لماذا لم يجعل كل هذا وزارة الخارجية الفرنسية تتخذ موقفاً أكثر مبادرة في اليمن، مع أن اليمن الذي يصحو، والعربية السعيدة التي تعود إليها سابق عهدها في النشاط، هما بأمس الحاجة للمساعدة غير المشروطة، من طبية، وتقنية، واقتصادية، وفرنسا مؤهلة لتقدم له ذلك. إن الانعزالية اليمنية نفسها، التي تتحول إلى بحث عن توازن عملي بين القوى المختلفة، تُظهر أن لفرنسا دوراً تؤديه في جنوب الجزيرة العربية.

إن أقدم الممالك العربية، وأكثرها استقلالية وانغلاقاً، هي في طريقها إلى الانفتاح على مختلف التأثيرات الأجنبية. وفي هذا التنافس المعلن، يحتاج اليمن إلى حلفاء مسالمين: إلى تقنيين.

obeikandl.com

الفصل الحادي عشر
مستعمـــرة عـدن ومحميتهـــا

إن ما يسميه البريطانيون محمـية عدن هو في واقع الأمر مجموعة من الأراضي الشاسـعة، ذات مساحـات مختلفـة، ووضعية سـياسيـة متشابهـة. إن وجود الإدارة البريطانية هو عنصر التجانس بين عدد كبير من الإمارات، وتعيش القبائل، وبطونها، اكتفاء ذاتياً من الناحية الاقتصادية، وتعمها الفوضى من الناحية السياسية. إن التجانس العرقي والديني بين السكان، لم يمنع انتشار الانقسـامات، التي كان من أولى نتائجها صراعات داخلية مستمرة.

وعندما أراد الوكيل السياسي البريطاني هارولد أنغرامس Harold Ingrams في عـام ١٩٣٧م التـوصل إلى اتفاق سـلام يحـمل اسـمه، كـان عليـه أن يجـمع في حضرموت وحدها، أكثر من ١٤٠٠ توقيع[١].

تبلغ مساحـة محمية عـدن حوالي ٣٠٠ ألف كم مربع، أي ما يعادل مـساحة الجزائر الشماليـة. إن الأرض التي تسيطر عليها بريطانيا، تمتد بين رأس الشـيخ سعيد على باب المندب، ورأس ضربة علي علـى حدود ظفار، طول ساحلهـا ١٢٠٠ كيلو متر من الأراضي القاحلة المجدبة. وفي الداخل، تقف حـدود المحمية في الغرب عند جبـال اليمن، وفي الشـمال الشـرقي عند التخـوم الجنوبية لـلربع الخالي. أمـا الجار السعـودي، فهو بعـيد، هناك فيمـا وراء رمال الصحـراء الجنوبية الكبرى؛ أمـا الجار اليمني، فهو على العكس ، قريب، ويعلن عن وجوده في كل وقت.

---

(١) انظر هارولد أنغـرامس: بلاد العرب والجزيـرة، ط٢ جون موري، لندن، ١٩٥٢م. وانظردوريـن أنغرامس: نظرة عامة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في محمية عدن، ١٩٤٩م. وانظر أيضاً التقارير الاستعمارية: عدن ١٩٥١-٥٢ و ١٩٥٣-٥٤، H. M. Stationery office, London, 1954 et 1956.

لقد تم تقسيم محمية عدن إدارياً بموجب المرسوم الملكي الذي صدر بتاريخ ١٨ مارس«آذار»[١٥٨] ١٩٣٧م، إلى قسمين، تتفقان في الخطوط العريضة مع الواقع التاريخي. محمية عدن الغربية(١٠٠ ألف كم مربع)، مؤلفة من الأراضي التي كانت تُعرف سابقاً باسم المقاطعات التسع، ويطالب بها اليمن بإلحاح.

ومحمية عدن الشرقية(٢٠٠ ألف كم مربع)، تضم حضرموت[١]، ومنطقتين أصغر منها، هما: الواحدي والمهرة. أما جزر سقطرة، و Brothers، وعبد الكوري، في المحيط الهندي فهي تبعة لسلطان المهرة. وهناك قسم إداري بريطاني ثالث هو: مستعمرة التاج، التي ليست إلا جيب صغير، محصور في المحمية الغربية. ومساحتها مع ما يتبعها من الجزر، وهي: بريم «جبل طارق باب المندب»، وكمران في البحر الأحمر، وكوريا موريا[١] الصحراوية، ٢٠٧ كيلومترات مربعة.

لقد كانت عدن في الماضي مجرد محطة للتزود بالفحم الحجري على طريق الهند، ثم أصبحت مستعمرة تابعة للتاج البريطاني في ١ أبريل«نيسان» ١٩٣٧م. في الوقت نفسه الذي تشكلت المحمية التي حملت الاسم نفسه. إن حاجة بريطانيا لعدن، محطة على طريق الهند، هي التي دفعت السلطات البريطانية إلى تنظيم الداخل وربطه بالمستعمرة. وما تزال المستعمرة الصغيرة، حتى اليوم، العاصمة الإدارية والاقتصادية للمحمية كلها، وهي التي تسمح بالسيطرة على المحمية، وتسوغ وجودها؛ ولكن التنقيب المستمر عن البترول، يمنح المحمية قيمة جوهرية، ناهيك عن أهميتها الاستراتيجية و الاقتصادية.

(١) في الأصل Le Hatzer Maveth de la Bible حَتْصر ما فِتْ المذكورة في العهد القديم، وقال روبن بِدْول في كتابه الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة د. عبد الله آدم نصيف، الرياض ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ١٦٥-١٦٦: «وقد ورد ذكر حضرموت في مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين، وذكر أيضاً في سفر التكوين في التوراة، وفُسِّر اسمها على أنه «وادي الموت» وأفادني مثل ذلك الأستاذ الدكتور محمد الهواري، وقال مترجم كتاب بدول المشار إليه: لقد ذكرت حضرموت عند استرابون وبليني باسم كترموت... كما ورد اسم حضرموت في سفر أخبار الأيام الأول، الإصحاح الأول فقرة(٢٠). (المترجم).

(٢) وهي التي أشرنا من قبل أنها تعرف بجزر الحلانيات (المنيف).

المستعمـــرة الاستراتيجيـــة

تتكون مستعمرة التاج من رأسيْن بركانيين صغيرين، يحيطان كفكي كماشة بجون كبير، ويربط بينهما حزام ضيق من الأراضي. أما عدن نفسها، فتقع على الرأس الشرقي، حيث يوجد الميناء، وإلى الوراء قليلاً نحو الداخل، يقع مطار خور مكسر. أما عدن الصغيرة، في الجهة المقابلة، فلم يكن يسكنها إلا بعض الصيادين، حتى أُقيمت فيها مصفاة بترول ضخمة، دُشِّنت عام ١٩٥٤م. وتقع على الجرف «القاري» للمستعمرة، واحة [١٥٩] الشيخ عثمان، وهي قرية يسكنها اليمنيون الخلَّص، وتعد ناحية ثالثة؛ ويدير كل ذلك، مع بريم وكمران، مفوضون يخضعون لسلطة حاكم تعينه وزارة المستعمرات، وهو في الوقت نفسه حاكم المحميات أيضاً.

أما إدارة ميناء عدن فهي مستقلة. وخور مكسر، التي تضم قاعدة جوية هامة، تخضع خضوعاً مباشراً لسلطة القوى الجوية الملكية البريطانية.

كانت عدن قبل الاحتلال البريطاني عام ١٨٣٩م، تابعة لسلطان لحج، وكان عدد سكانها حوالي ٥٠٠ نسمة. وفي عام ١٩٣١م، أصبح عددهم أكثر من ٥١ ألفاً، ثم ١٠٠ ألف في عام ١٩٥١م، و١٥٠ ألفاً بعد خمسة أعوام. إن هذه الزيادة السريعة، والمستمرة في عدد السكان، هي نتيجة طبيعية للازدهار المتزايد في المستعمرة منذ افتتاح قناة السويس. ويشكل ميناء عدن العصب الحيوي للحياة فيها، وهو الميناء الوحيد على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة. إن منشآتها التي تزود السفن (بالفحم والمازوت)، تجعلان منها إحدى أنشط المحطات في الكون، وتعادل الحمولة السنوية للسفن التي تمر بها حمولة السفن التي تمر بميناء ليفربول، ومعدل النقل في ازدياد مستمر. أما مصفاة البترول التي أقامتها شركة بريتيش بترولیوم في عدن عام ١٩٥٤م، والتي يأتيها البترول الخام من الحقول القريبة على الخليج العربي، فقد نشأت بجانبها مراكز لبيع الطعام للبحارة، وفتحت الحركة السياحية سبل العيش أمام

طائفة كـثيرة من أصحـاب المهن البسيطة، وهـناك ١٥٪ على الأقل من سكان عدن، يعملون في أشـغال الميناء المختلفة. وتردت أحـوال المستعمـرة الاقتصادية خـلال فترة إغلاق قنـاة السويس، من نوفـمبر«تشـرين الثاني»١٩٥٦م إلى مـايو«أيار»،١٩٥٧م، ولكن إعادة فتحها، أعاد الأحوال إلى سابق عهدها.

إن هذه المحطة البريطانية بصفتها مرفـأ حراً-مثل جيبوتي- هي مركز ترانزيت، وإعادة تصدير، تتم عبره جميع المبـادلات بين المحمية واليمن. ولما لم تكن إمكانيات الزراعة متوافرة في المستـعمرة، فإنها مرتبطة بالخارج لتوفير المـواد الغذائية الأساسية، مثـل الأرز، والطحين، والسكر، التي تستـوردها الحكومة. ويعـمل بعض أصـحاب المهن اليدوية، والصيادون، وبناة المراكب على توفير حـاجة السوق المحلية. وتُستخرج من بعض السبـاخ الملحية[١٦٠] السلعـة المحلية الوحيـدة الصالحة للتـصدير؛ الملح. ولكن أهمية عـدن، شأنها شأن سنغافـورة، وجبل طارق، ترجع في المقام الأول إلى موقعها الاستراتيجي على الطريق الرئيـسية التي تصل بين الجزر البريطانية وإمبراطورية الكومنولث.

إن المستعمرة البـريطانية الصغيرة في العربية الجنوبية، تسـهر على حراسة الثروة البريطانـية، شأنهـا شأن جبل طارق، ومـالطا، وهونغ كونغ، وسنغـافورة. وتشـهد القلعة الصخـرية الحصينة في بريم، شأنها شأن جبل طـارق والسويس، مرور ناقلات البـترول بـلا انقطاع ، تحمـل إلى المملكة المتـحدة، وسـائر أوروبا، السـائل الثـمين المستخرج من رمال الجزيرة العربية.

وتحصل مصفاة مدينة عدن على نصيبها من البترول الخام عند وصول الناقلات. وتبلغ طاقتـها السنوية ٥ مـلايين طن، تغذي الأسواق القـريبة في إفريقـيا الشرقـية، والمحيط الهندي حـتى سيلان. ويتم سنوياً إنتاج ثلاثة أطنان من المحـروقات المكررة، يُنْقَل مليونـان منها على الأقل عبـر خط بحري إلى منشآت التـزويد في الميناء، على الطرف الآخر للجون. وسرعان ما وجد البريطانـيون أنفسهم مجبرين على زيادة إنتاج

وقود الطائرات، الذي حُدِّدت كميته بـ ٤٠٠ ألف طن، وذلك لتلبية الحاجات المتزايدة للطلعات الجوية من القاعدة، التي زاد عددها مرتين، في عام ١٩٥٥م ، ثم في عام ١٩٥٧م. لأن مستعمرة التاج، بعد أن كانت مقر القيادة العامة الجنوبية للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، أصبحت في بداية عام ١٩٥٧م، المقر العام للقيادة العليا للقوات البريطانية في الجزيرة العربية، لتكون قادرة على مواجهة الهجمات التي قد تشنها القوات اليمنية أو السعودية من أي جهة جاءت.

إن المسؤولين عن المقر العام المركزي للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، ومقره في قبرص، قاموا، تماشياً مع مذهب لورانس في المراقبة الجوية، بإسناد القيادة العليا للقوات البرية والجوية البريطانية كلها، من البحر الأحمر إلى الخليج العربي، للقوات الجوية الملكية في عدن. ومازال نائب المشير الجوي سانكلير L. F. Sinclair، الذي عُيِّن رئيساً للمقر العام الجديد، يشرف من مقره في مدينة عدن على القواعد الجوية في عدن، والبحرين، والشارقة، وعلى عدد من أفواج المشاة، وعلى القوات المحمولة جواً، وعلى القوات المحلية التي يقودها ضباط بريطانيون في الصومال البريطاني، وعدن.

وتتألف القوات الجوية من أسراب من المطاردات النفاثة [١٦١] فينوم Venom، ومن القاذفات المروحية لينكولن Lincoln، ومن طائرات الشحن. وقد ظهر منذ أربعين سنة، أن الاعتماد اعتماداً كلياً على الطائرات في هذه المناطق الصحراوية والصعبة، أقل تكلفة، فاعتمد. ولقد كان تدخله ضرورياً في مناسبتين، عام ١٩٥٧م، في محمية عدن، في يناير-فبراير«كانون الثاني-شباط»، وفي سلطنة عُمان، في يوليو-أغسطس«تموز-آب». وإذا كانت المحمية الشرقية قد انتشر فيها السلام والاستقرار منذ عدة سنوات، فإن المحمية الغربية لم تعرف السلام والاستقرار أبدا. وإن قربها من اليمن التي نعرف سعيها لضم هذه المناطق يمكن أن يفسر ذلك.

المقاطعات التسع

تشبه المحمية الغربية اليمن في طبيعتها، ويسكنها السكان الفلاحون أنفسهم، ففي الجبال نجد السحنة المتوسطية هي الغالبة، وفي الساحل يقيم مزيج من السكان الأصليين والأفارقة. والمنطقة الساحلية، ما خلا بعض المناطق المحدودة، منطقة شبه صحراوية، شأنها شأن تهامة اليمنية؛ ولكن الهضاب والمرتفعات التي تتدرج في الارتفاع نحو قمم العربية الخضراء، هي بالطبع أكثر أمطاراً، لذلك يقيم الفلاحون فيها، ويزرعونها. ومنذ أن غادر اليهود المحمية الغربية إلى فلسطين المغتصبة، لم يعد فيها إلا حوالي ٤٠٠ ألف نسمة، هم جميعاً من المسلمين السنة، على المذهب الشافعي، شأنهم شأن سكان اليمن الجنوبي، والمحمية الشرقية. وهم في غالبيتهم حضر، أما البدو فيعيشون في الشمال والشرق على تخوم صحراء الربع الخالي.

إن السلطات البريطانية، التي كانت على الدوام حريصة على احترام الخصوصيات المحلية، حافظت بعناية على الهياكل الاجتماعية-السياسية للتنظيم القبلي الموروث عن الممالك الضخمة الزائلة، التي كانت موجودة قبل الإسلام، وتحتفظ تلك الخصوصيات في نظر المستعمر بأهميتها، لأنها تقف حجر عثرة في وجه توحيد البلد. ويربط بريطانيا بكل واحدة من الكيانات السياسية المعترف بها رسمياً باتفاقية ثنائية. وتشير اللائحة الرسمية في عدن إلى أن عدد تلك الكيانات السياسية هو ثمانية عشر كيان، ولكنها في واقع الأمر أكثر عدداً. [١٦٢] ويبدو أنه من شبه المؤكد أن بعض الأجزاء المتناثرة لا تعترف بالتبعية لأي من الزعماء الذين تعترف بهم عدن(معاهدة المشايخ)؛ ولكن السلطات البريطانية تتعمد تجاهل ذلك لتجنب نفسها التعامل مع تقسيم أوسع.

إن القبائل التي تدخل في نطاق المعاهدة المذكورة، التي يذكرها تقرير وزارة المستعمرات الأخير، هي التالية:

العبدلي عاصمتهم: لحج(وسلطانهم يبسط سيطرته على عدة قبائل).

الأميري ـــ الضالع .

الفضلي ـــ شُقرا.

يافع السفلى ـــ القارة .

الحواشب ـــ المُسَيْمِير.

يافع العليا ـــ المَحْجَبَة.

المَوْسَطَة ـــ القُدْمَة.

الظُّبي ـــ ظِسورة.

المَفْلِحي ـــ الجوبا.

الحضرمي ـــ الشِبْر.

الشُعَيْبي ـــ أوابل.

القُطَيْبي ـــ الثُمَيْر.

العلوي ـــ القَشْعَة.

العقربي ـــ بئر أحمد.

العوازل ـــ لودر .

العوالق العليا ـــ الصعيد.

العوالق السفلى ـــ أحور.

بيحان ـــ بيحان القصب .

obeikandl.com

وعلى الرغم من أن هذه الكيانات تسمى «دولاً»، فإن سلطان لحج وحده، هو الذي يستحق هذه التسمية. وهو أول سلطان في المحمية الغربية، ويعترف بسيادته عدد من المشايخ الصغار. وهو أول الزعماء الذين وقعوا اتفاقاً مع البريطانيين، وكانت علاقاته مع سلطات عدن جيدة عموماً. وسلطنته هي في واقع الأمر همزة الوصل بين طرق التجارة كلها في الزاوية الجنوبية الغربية للعربية الجنوبية، وتؤمن لها رسوم المرور التي تستوفيها عائدات صافية محترمة.

إن السلطان فضل عبد الكريم الذي أزيح في [١٦٣] أبريل«نيسان» ١٩٥٢م، إثر تصرفات استبدادية، هرب إلى اليمن، واختار مجلس القبائل شقيقه علي عبد الكريم خلفاً له. ولكي تعترف به الإدارة البريطانية، اشترطت أن يوقع «معاهدة استشارة» (Advisory Treaty)، تجبره على الرضوخ لمشورة «مستشار» بريطاني في حكم سلطنته وإدارتها.

كان شريف بيحان يدير بحنكة القبائل التابعة له، في منطقة صعبة المسالك، تتعرض أحياناً لهجمات القبائل اليمنية، أو لهجمات أولئك الذين يرفضون الخضوع للبريطانيين في المحمية. وفي هذه المنطقة القريبة من الحدود اليمنية غير الواضحة، كان وندل فيليبس قد بدأ التنقيب في عام ١٩٥٠م. وفي أكتوبر«تشرين الأول» ١٩٥٦م، نشرت الصحف العربية في عدن معلومات كثيرة، تشير إلى توقيع اتفاق بين حسين شريف بيحان، والسيد فيليبس لاستثمار البترول في بيحان، بالاتفاق مع شركة بريطانية، هي شركة بيتروليوم كونسيسيون . Petroleum Concessions لقد بدأ زعماء المحمية الغربية يجدون مصاعب جمة في السيطرة على القبائل التي كانت تتمرد في غالب الأحيان. إن الناقمين، والمغامرين، والمعادون لبريطانيا، كل هؤلاء متأكدون أنهم يجدون في اليمن عوناً، وملجأ، وأسلحة وذخائر إن هم ، أرادوا مواجهة بريطانيا. إن قسم الحدود الذي رُسِّم في عام ١٩٠٥م بين أقصى الجنوب الغربي للجزيرة، وبين قرية قَعْطَبَة اليمنية، يسوده الهدوء. ولكنه لا يكاد يُمثِّل إلا ثلث الخط

الذي يتعرج تعرجاً شديداً-حسب الخريطة البريطانيـة- قبل أن يسير بخط مستقيم جداً في الرمال المتحركة.

وليست الحـوادث على طول هذا الحد الوهمي بنادرة بين الرجال الذين اعـتادوا منذ الأزل أن يعيشوا، وإصبعـهم على الزناد. ولكن التطور الاقتصادي الذي نتج عن استـصلاح أرضي جديدة، ينشـر السلام في بعض المناطق المميـزة، مثل أبين. وهناك منطقة كانت في الماضي خـصبة جداً، مساحتـها ٤٠ ألف هكتار، وتقع بين سلطنتيْ الفضلي ويافع السفلى، استصلحت اليوم، وأصبـحت صالحة للزراعة، وتُستخدم منذ سنوات منطقة رئـيسية لزراعـة القطن و[١٦٤]منتجـات أخرى تجريبـية، بما في ذلك تحسين الزراعات الغذائية التقليدية، وتربية المواشي.

إن مخطط تطوير أبين[١] Abyan(Abyan Desert Reclamation Plan) مدعاة فخـر للسلطات البـريطانية، ناهيك عـن تعدد أماكـن الخدمات الـطبيـة والصحـية، والانتشار الـسريع للتعليم. يحاول البـريطانيون، عبْر رفع مـستوى المعيـشة، والعناية بالصحة والثقافة، المترافق بتنظيم إداري جديد، إيجاد هوة بين سكان الأراضي الواقعة تحت حمـايتهم، وسـكان الأراضي اليمنيـة. وإن الهدف الظاهر أو الخـفي للسلطات البريطانية، هـو أن يصبح شافعيـو المحمية أكثـر تقدماً وغنى، ليشكلوا مـركز جذب يجذب الشافعية المغلوبين على أمرهم، وهو الأكثرية، وأن يكون اجتماعهم، في حال تحققـه، بداية نهاية السيطرة الزيدية لأئمـة صنعاء. هل شعر الحكام اليـمنيون بالخطر الداهم ؟ أميل إلى الاعتقاد أن تصرفاتهم تدل على ذلك.

حضرمـوت والواحـدي والمهـرة

إن أكبر أقـسام محمية عـدن مساحة، هو أيضاً أقلهـا سكاناً. إذ يسكن حوالي ٣٥٠ ألف نسـمة أغـوار حضـرمـوت، والمهرة، والواحـدي، التي تشكل المحـميـة

(١) وادي أبين-على وزن أحمر- يقع ضمن أراضي سلطنة الفَضْلي المجاورة للساحل(المترجم).

الشرقية. ولما كانت المنطقة صحراوية، فإنه يغلب عليها حياة البداوة التامة. ولم تكن الحياة المدنية خلال فترة طويلة من الزمن ممكنة في المناطق الداخلية، البعيدة عن الساحل، إلا بفضل المواصلات التي كانت تؤمنها قوافل البدو، الذين كانوا يقومون خلال وقت بسيط برحلة الذهاب والعودة لنقل البخور والتوابل. لأن حضرموت كانت فيما مضى حاضرة مزدهرة من حواضر العربية السعيدة، تشرف من ناطحات السحاب في مدنها الفخمة، على أكثر أنواع التجارة ربحاً في العالم القديم. أما اليوم فقد حل البترول محل البخور، والناقلات الضخمة محل الجمال، وتغيرت الطرق التجارية: يا لغرابة الجزيرة العربية! وحضرموت، التي تخلت عن مكانتها للأحساء والكويت، لم يبق لها إلا مدنها المبنية من المرمر والطين، القابعة بين جوانب الهضاب الكلسية، لتذكرها بمجدها الغابر، وبأحمال البخور الثقيلة، التي تمر تحت جدران مدنها المتعبة: شبام، أو تَرِيم، أو سَيْون، أو المكلا.

إن بقاء هذه المدن القديمة، التي تشهد على وجود فن معماري متقدم، في قلب الصحراء، التي لا يستطيع تحمل الحياة فيها إلا البدو الذين لا يعرف التعب إلى أجسادهم سبيلاً ، هي واحدة من أكثر سمات المحمية الشرقية أصالة: إنها ثقافة ثنائية، حضرية وبدوية. وإن وجود المدن الكبيرة، وطبقة برجوازية تجارية، وأمراء يسيطرون على القبائل المجاورة، كل ذلك، ساعد على إرساء تنظيم سياسي، وإداري أكثر تطوراً، وأكثر تعقيداً. فالحضريون، أعداء النزاعات القبلية التي تشل التجارة-عدا تجارة السلاح- كانوا عوناً للبريطانيين لفرض السلام على مختلف القبائل، والعشائر. واستغل أنغرامس W. H. Ingrams، الذي أصبح بعد ذلك أول مستشار مقيم بريطاني في المحمية الشرقية، ذلك الوضع بذكاء للحصول عام ١٩٣٧م على هدنة لثلاث سنوات، بين المتنازعة دائماً. ثم جُدِّد «سلام أنغرامس»، الذي شعر الجميع بمنافعه، بسهولة بعد ذلك لمدة عشر سنوات أخرى. وأصبحت التقسيمات السياسية في المحمية الشرقية، بفضل الوضع السائد، أقل عدداً، وأكثر بساطة، لأن سلطات عدن لم تعترف إلا بأكثر الزعماء أهمية.

تضم حضرموت دولتيْ، القعيطي، والكثيري، والأولى تتزعم الثانية. وشكل المهرة سلطنة في قِشْن و سقطرة، وعاصمتها حديبو (تماريدا Tamarida) في جزيرة سقطرة. وتضم الواحدي سلطنتين صغيرتين، سلطنة بئر علي، وسلطنة بلحاف ، وفيها أيضاً إمارتان ساحليتان صغيرتان جداً، هما: عِرْقة ، وحورة.

الإدارة غير المباشرة

تشغل سلطنة القُعَيْطي[1]، وعاصمتها المكلا، ساحل حضرموت كله، وتمتد بعيداً إلى الداخل. وكان حاكمها أول من وقع مع السلطات البريطانية في عام ١٩٣٧م «اتفاقية استشارة» (Advisory Treaty) واليوم، كل الزعماء في المحمية[١٦٦] الشرقية، وأهم زعماء المحمية الغربية، يرتبطون ببريطانيا بمعاهدات «استشارة». ويلتزم الأمراء العرب بموجب هذه المعاهدات «بالاستماع إلى رأي مستشار بريطاني حول كل المسائل، ما عدا المسائل الخاصة بالدين الإسلامي، والعادات المحلية». والتزموا أيضاً أن «يحكموا بالعدل والحلم. . .متعاونين دون تحفظات مع الحاكم البريطاني. . .قابلين رأيه في كل الشؤون المتعلقة بازدهار البلاد وتطورها»[2] . وأكملت هذه الاتفاقات معاهدات الحماية التي تضع السياسة الخارجية في يدي حاكم عدن البريطاني، وتمنع الأمراء من التصرف بأي جزء، مهما كان صغيراً، من أرضها دون الموافقة البريطانية المسبقة.

أما بالنسبة إلى حضرموت، فهناك معاهدة خاصة، المعاهدة البريطانية-القعيطية- الكثيرية[3] في ٢ مارس«آذار» ١٩٣٩م، التي اعتُرف بموجبها

(١) نسبة إلى عمر بن عوض القعيطي المتوفى عام ١٢٨٨هـ١٨٧١/ م المؤسس الأول للمملكةالقعيطية، وهو من قبيلة يافع أعظم قبائل حمير وأكثرها عدداً(المترجم).

(٢) نجد النص بتمامه ملحقاً برسالتي عن العربية الجنوبية، التوثيق الفرنسي، رقم ٢، ١٨٦ .

(٣) آل كثير، أعظم قبائل همدان من العرب القحطانية، وأشدها قوة، وأشرفها مقاماً. وأول من نُصِّب سلطاناً على حضرموت منهم علي بن عمر بن جعفر. . .بن كثير، المتوفى عام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م. وتسبب الصراع بينهم وبين يافع إلى انقسامهم إلى حكومتين قعيطية وكثيرية. وأشهر مدن السلطنة الكثيرية سَيْون وتريم. الدباغ، ج٢، ص ٧٣-٧٧(المترجم).

بأولية القعيطي، وأُعلن فيها أن «دولتيْ القعيطي والكثيري، تشكلان دولة واحدة، بما في ذلك المناطق التي تتبعهما، هي دولة حضرموت، التي تتبع الإمبراطورية البريطانية». إن هذه الشبكة من المعاهدات، أوجدت أساساً قانونياً لتدخل بريطاني في المنطقة، سري، ولكنه فعال. أما اليوم فإن دول حضرموت المسالمة هي الأفضل إدارة، والأكثر تطوراً، سياسياً واجتماعياً، في محمية عدن.

إن الممثلين البريطانيين لا يتدخلون مباشرة في الشؤون الداخلية للسلطنة، ولكنهم يراقبون إدارتها، ويبذلون النصح، ويقترحون، ويقدمون دعمهم. وهذا في رأيي المثال الأكثر نموذجية للإدارة غير المباشرة، وهو نظام يُستخدم بطرق مختلفة، على كل المستويات في الإمبراطورية البريطانية[1]. وبعد صدور القانون الحكومي، الذي تم بموجبه في عام ١٩٣٧م إنشاء المحمية، احتفظت الحكومة البريطانية لنفسها بحق التشريع والإدارة في البلاد كلها. ولكن هذا الحق لم يمارس عملياً إلا فيما يتعلق بالشؤون الخارجية، وشؤون الدفاع، والمراقبة المالية،[١٦٧] وفيما عدا ذلك فإن استقلال السلطان هو استقلال حقيقي. فالمستشارون في الحكومة، والوزارات، والإدارات البلدية هم جميعاً من السكان الأصليين، أو من المسلمين. إن النظام المطبق في حضرموت كان في قسم كبير منه مستوحى من النموذج الماليزي، الذي وضعه في عام ١٩٣٩م هارولد أنغرامس. أما سلاطين المحمية الشرقية الآخرون، الذين ما زالوا في مرحلة أدنى من التطور السياسي، فإنهم يميلون إلى تقليد تطور حضرموت، ويستفيدون من تجربتها. وإن المهرة و سقطرة، اللتين لم يوقع سلطانهما «معاهدة الاستشارة» إلا في عام ١٩٥٤م، متأخرتان جداً في هذا المجال[2].

---

(١) «النظام البريطاني في الإدارة غير المباشرة للـ .T.O.M » في فرنسا-ماوراء البحار، رقم ٣٢٨، ١٩٥٧م.

(٢) فصلت التجربة البريطانية الرائعة في رسالتي م. س.، السياسة البريطانية في العربية الجنوبية، المعهد الدولي للدراسات والبحوث الدبلوماسية، باريس. وأحيل إليها القارئ المهتم بهذا الجانب من العلاقات العربية-البريطانية.

سقطرة المنسيـــة

إن السكان الأصليين في المهرة، وفي جزر المحيـط الهندي، الذين يتحدثون لغة غريبـة، ويمارسون عبـادات قديمة في لبوس إسـلامي، ما زالوا يجنون نبات البـخور والصبـر شبـه عراة. لقـد بقيت سقطـرة، التي يطلق عليهـا لقب جزيرة«شـجرة دم التنين»[١]، بسبب صعـوبة الوصول إليها، واسـتحالته غالبـاً، في منجى من أي نفوذ أجنبي[٢] . في بداية القرن السـادس عشر، نزل فيـها البوكيرك، وترك أثـره المعتاد: قلعة صغيرة[٣] . و أراد البريطانيون في عام ١٨٣٠م، أن يتـخذوها محطة لهم على طريق الهند، ولكنهم سرعان ما تخلوا عن ذلك، وذهبوا إلى عدن.

إنها مـحاطة بصخـور حادة، لا يمكن الاقتراب منهـا ستة أشـهر في السنة[٤]، ولذلك ظلت منطوية على نـفسـها. ولعل السـياسـة البريطانيـة، في عصـر الطائرة والهيلوكـبتـر تعيد الكرة لتـتطور حيـاة سكانها، الذين يخـضعون لسلطـان مستـبد، ويجهلون عيدان الثقاب في عصـر القمر الصناعي، ويعيشون من تربية المواشي، ومن قليل من الزراعة، والصيد الساحلي. ويغوص سكان الساحل لالتقاط اللؤلؤ النادر من البحر الذي يضن بها؛ ويحـتمي غالبية السكان في [١٧٧] مغاور الهـضاب الصخرية الداخلية، بين الأشجار التي تسيل منها لآلئ أخرى، إنها كريات البخور.

---

(١) قال روبن بدول في الرحـالة الغربيون...م.س.، ص ١٧٥: ومما زاد في روعة الجزيرة ذلك الـنبات الفريد الذي ينمو على ارتفاع يتراوح مـا بين ثمانمائة إلى ألفي قدم وهوشجرة دم التنين التي تفرز مادة صـمغية لونها أحمر داكن، ويصل ارتفـاعها عالياً إلى عـشرين قدماً، وأغصـانها كثيفـة، وقصيرة، وسمـيكة، ومنضفرة، وتغطيها الأوراق، وطول الورقة الواحدة قدم واحد، وقد انفرجت إلى الخارج كالمروحة(المترجم).

(٢) قدم لها أحد الـعلماء البريطانيين وصفاً مخـتصراً في الصندي تايمز The Sunday Times، ١٠مارس«آذار» ١٩٥٧م.

(٣) بنى البرتغاليون فيها قلعة في عام ١٥٠٦م. انظر بدول، الرحالة...، ص ١٤٧(المترجم).

(٤) بسبب الرياح الموسمية العاتية التي تلحق بسكانها أضراراً فادحة(المترجم).

لقد كانت سقطرة فيما مضى أرضاً مزدهرة، عندما كانت صمغها العطري يساوي وزنه ذهباً، أما اليوم فهي واحدة من تلك المناطق المنسية، المتخلفة تخلفاً كبيراً في كون يجوبه المكتشفون، والعسكريون والباحثون عن البترول. لقد زار الجزيرة منذ عام ١٩٥٤م مندوب بريطاني، ولكنه يبدو أن مظهر الجزيرة البائس، والجهل والمرض المنتشرين فيها، ومصيرها الذي جعلها بعيدة كل البعد، كل ذلك، جعل المتحضرين الذين أخذوها على عاتقهم مترددين ومتضايقين. ليس للجزيرة من الناحية الاستراتيجية سوى أهمية محدودة جداً للبريطانيين، ما داموا يسيطرون على الصومال وعدن، ولكنْ، يمكن تطوير مهبط الطائرات في قضوب Qadhoub قرب خديبو[١]. واقتصادياً لا نعلم أن الباحثين عن البترول قد عملوا في هذه القلعة الطبيعية. وأغلب الظن أن الامتياز الذي منحته سلطات عدن البريطانية للتنقيب في المحمية كلها، يشمل سقطرة.

التقدم الاقتصادي والاجتماعي

ظهرت آثار التدخل البريطاني في المحمية في المجال الاقتصادي على وجه الخصوص. لأن الاقتصاد التقليدي الأساسي يقوم على الزراعة وتربية المواشي، وعلى الصيد بالنسبة إلى سكان السواحل. وقد سبقت الإشارة إلى برنامج تطوير اقتصاد أبين، الذي أتاح في عام ١٩٥٢-١٩٥٣م، إنتاج ١٩ ألف بالة من القطن ذي الألياف الطويلة، المولد من القطن المصري، و٤٠ ألف بالة في عام ١٩٥٤-١٩٥٥م. كما بُدئ بتنفيذ عدد من المشاريع الأخرى، ولكنها أصغر، وأقل أهمية؛ مثل بناء عدد من السدود الصغيرة، وشبكات الري، من شأنها أن تزيد المساحات المزروعة، ناهيك عن أن حسن اختيار البذور، واعتماد الطرق الحديثة في الزراعة، سيزيد معدل إنتاج

(١) لقد حصلت بعض التحركات السرية في الجزيرة في عام ١٩٥٧م، كما ذكرت ذلك مصادر حسنة الاطلاع، ولكن لا يمكن التحقق منها. وتتضافر الأحداث لتجعلنا نظن أن المقصود إنشاء قاعدة جوية ضخمة، وربما كان ذلك تحسباً لتطورات النزاع البريطاني- اليمني.

الهكتار. أما في حضرموت التي يرتبط الري فيها حصراً بالمياه الجوفية، [١٦٩]فقد أصبح الماء يستخرج بوساطة المضخات، التي أصبح عددها عام ١٩٥٤م ٥٠٠ مضخة ديزل، زادت إلى أربعة أضعاف المساحة المروية. وتبيع الحكومة المحلية المضخات بالتقسيط، وتستورد لها الوقود الضروري. ويوجد في سيون عاصمة سلطنة الكثيري في قلب وادي حضرموت، ورشة ميكانيكية لصيانة المضخات وتصليحها.

ويمول مشروعات الإنماء الاقتصادي في محمية عدن، صندوقُ تطوير المستعمرات وإنمائها Colonial Development and Welfare Fund؛ وهو مؤسسة بريطانية تشبه صندوق الاستثمار الفرنسي للتطوير الاقتصادي والاجتماعي في أراضي ما وراء البحار(FIDES) إن المجاعة الرهيبة التي حلت بحضرموت بعد مرحلة قحط طويلة في ١٩٤٢-١٩٤٣م، دفعت بريطانيا، التي كانت في حالة حرب، إلى الموافقة على مساعدات عاجلة لمكافحة المجاعة. وبعد الحرب، خُصصت الأموال حصراً للمشاريع القادرة على معالجة الفقر، ولإزالة آثار القحط. فمن ٤٧٠ ألف جنيه استرليني خصصها الصندوق المذكور بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٥٣م، ٣٠٥ آلاف، أُنفقت على أعمال الري، وعلى ترميم السدود. وأُحدثت بفضل مساعدة الصندوق وظائف لمهندسين زراعيين، ومساحي ري، وأُنشئت شعبة للبحوث الزراعية. وقدم الصندوق نفسه القرض الذي مكّن مشروع أبين من الانطلاق. وحتى ١٩٥٥م، كان صندوق تطوير المستعمرات وإنمائها قد وزع أكثر من ٥٠٠ ألف جنيه إسترليني في محمية عدن. ورصد للفترة الممتدة بين ١٩٥٥ و ١٩٦٠م، مبلغ كلي قدره ٧٧٠ ألف جنيه إسترليني. وناهيك عن المشاريع الاقتصادية البحتة، فإن الصندوق يمول إنشاء المدارس وتشغيلها، والوحدات الصحية المتنقلة، والمستشفيات. لقد أصبح في المحمية كلها ١٠٧ مدرسة ابتدائية في عام ١٩٥٥م، وخمس مدارس متوسطة، ومدرسة ثانوية واحدة. وكانت تعمل فيها أيضاً خمس مستشفيات، وسبع وستون وحدة صحية، ومركزان للتدريب الصحي[١]. [١٧٠]

(١) الأرقام المذكورة كلها مأخوذة من وثائق رسمية قدمتها إليَّ مشكورة جهات رسمية.

إن إحدى الموارد الاقتصادية الهامة في حضرموت تتمثل في أبنائها الذين يهاجرون نحو الشرق الأقصى بحثاً عن الثروة. فمنذ القرن السادس الميلادي، وبعد تراجع تجارة البخور، وانهيار سد مأرب، بدأ الحضارمة بالهجرة نحو الهند وإندونيسيا، وأقاموا هناك مراكز تجارية مزدهرة. وهم الذين نشروا الإسلام في العالم المالاوي، وخصوصاً في جاوة وسومطرة. وسمح لهم وللصينيين كسلُ السكان المحليين، جمعَ ثروات طائلة، بفضل انكبابهم على العمل بجدية. ولكن الحضارمة لا ينسون مسقط رأسهم أبداً، إذ يعود كثير منهم بعد أن يجمع الثروة، ويرسل بعضهم، وهو في المهجر بعيد، ما يكفي لعيش أسرهم. وقُدِّرت قبل الحرب الأموال التي يرسلها هؤلاء المهاجرين إلى حضرموت سنوياً بـ ٦٠٠ ألف جنيه إسترليني. ولكن لهذا الوضع، الذي يذكِّر بوضع الجزائريين الذين يعيشون ويعملون في فرنسا، ومعظمهم من القبائل، النتائج نفسها، التي تترتب على كل الهجرات الاقتصادية؛ إذ يمكن لانقطاع الاتصالات بين المهاجرين ووطنهم أن يؤدي إلى كوارث، كما حدث إبان احتلال اليابانيين سنغافورة في الحرب العالمية الثانية، وكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية للمجاعة في حضرموت. وهناك نتيجة أخرى أعمق أثراً، وأبعد غوراً، إنها التمازج الحضاري المشترك، الذي يتفاوت في حجمه. ولهذا عُرف الحضارمة باختلاط أنسابهم، ولغاتهم، وعاداتهم، التي تأثرت بالعالم الهندي- المالاوي، وأصبحوا يرتبطون بالعالم الإسلامي حول المحيط الهندي، أكثر من ارتباطهم بعالم الجزيرة العربية.

فيدرالية، وقومية، وبترول

لقد أثرت ظروف البيئة على الأرجح في البريطانيين، فجعلتهم، بعد أن كانوا قد اعتمدوا في إدارتهم المحمية على النموذج المالاوي القائم على «معاهدات الاستشارة»، يتجهون إلى إنشاء فيدرالية تضم محميات العربية الجنوبية كلها. وقد بدا ذلك في تصريح رسمي أدلى به حاكم عدن السير توم

هيكنبوثام Tom Hickinbotham في ٧ يناير«كانون الثاني» ١٩٥٤م. وعلى الرغم من ردة فعل اليمن وحلفائه العنيفة، فإن الحاكم البريطاني الجديد، السير وليام لوسWilliam Luce، الذي عُين في أغسطس«آب» ١٩٥٦م ، واصل المخطط السياسي الذي رسمه [١٧١] سلفه، ودعا إليه، منظم محمية عدن ومكتشفها الشهير، هارولد أنغرامس.

وجاء في بيان، صدر في مارس«آذار» ١٩٥٦م: «إن سياسة حكومة صاحب الجلالة في المحمية وغيرها، تقوم على حسن إدارة الأراضي التابعة لها، ومساعدتها لتحقيق أقصى درجات التطور الاقتصادي والسياسي، الذي تسمح به ظروف كلٍّ منها. وإن حكومة جلالته أيضاً، تتبنى الرأي القائل: إن دول المحمية، إذا نظرنا إليها، كلاً على حدة، فإنها صغيرة المساحة، قليلة السكان والموارد، ولكي تستطيع الوصول إلى تطور اقتصادي وسياسي منشود، ينبغي عليها أن تحاول البحث عن صيغة ما من المشاركة الفعالة بينها، سعياً للمساعدة والدعم المتبادل، ولتقوية اقتصادها الداخلي وتنظيمها الاجتماعي».

تبدو واضحة الصيغ الحذرة، والعبارات المبهمة في هذا البيان الرسمي حول سياسة الحكومة البريطانية، والذي يبدو أنه تراجع بالنسبة إلى البيان الذي صدر عام ١٩٥٤م، والذي أثار عند صدوره نقمة اليمن، وجامعة الدول العربية، وأدى إلى حدوث بعض اشتباكات عنيفة على حدود المحمية وفي داخلها. أوصي بيان عام ١٩٥٤م صراحة إلى إقامة فيدراليتين ، واحدة في المحميتين الشرقية والغربية، استعداداً لتكوين فيدرالية في العربية الجنوبية كلها، ونرى في هذا ملامح النجاح الذي حققه النموذج المالاوي. ولكن الحملات الإعلامية اليمنية، والشقاق الذي ثار في المحمية الغربية، وتوقيع ميثاق جدة، والتقارب السوفيتي اليمني، كل ذلك، دفع البريطانيين إلى التراجع. وركز إمام اليمن خلال اضطرابات عام ١٩٥٧م على فضح النوايا للاستيلاء على الأراضي التي اكتُشف فيها البترول. وبسبب التطورات اللاحقة

للتغلغل السوفيتي، والأمريكي في المنطقة بصورة خاصة، وجدت السياسة البريطانية نفسها في مواجهة مبدأ معاداة الاستعمار الذي اتفق عليه العرب، والدول الشيوعية، وكتلة باندونغ، والولايات المتحدة الأمريكية.

إذاً، لقد أصبح من المشكوك فيه في عام ١٩٥٨م، أنْ ينجح المخطط البريطاني لإقامة فيدرالية[١٧٢]. وربما يكون حظه من النجاح في المحمية الشرقية (وفي حضرموت على وجه الخصوص) أكثر منه في المحمية الغربية. ولكن نجاحه لا يعتمد في كل الأحوال على قدرة البريطانيين وحدهم على تجاوز اليمن في مجال التطور الاقتصادي والاجتماعي، وإنما على الاهتمام بسكان المحمية، وليس بزعمائها فقط، أمام انتشار الأفكار الوطنية. وليس بالإمكان أن نتصور الأثر الذي تركه في هذه البلاد المتأخرة(كما هي الحال في قلب الجزائر) انتشار المذياع. فالبدو الأميون، وسكان الجبال المنعزلون في محمية عدن، يستمعون اليوم باهتمام بالغ إلى محطة صوت العرب، والصوت المنطلق من القاهرة يثير الزوبعة، والآخرون يحصدون العاصفة.

لقد صرح شريف بيحان، وهو من أنصار التعاون الوثيق مع بريطانيا، ومن مؤيدي فكرة الفيدرالية: «هذا الاتحاد ضروري، والثروات الدفينة في أرضنا، لا سيما بترول بيحان، وإقامة المشاريع الزراعية الضخمة، تسمح لنا بتحمل مسؤولية ذلك الاتحاد. ولست براضٍ أن يحاول راديو صوت العرب خداعنا في هذا المضمار». أما إمام اليمن، فإنه لا يرى الأمور بهذا المنظور، بل يرى أن بترول بيحان يمني؛ وقد أعلن عزمه على متابعة جهوده «سعياً لتحرير القسم الجنوبي من اليمن»، بقوله إن «قضية الفيدرالية أُثيرت في الوقت الذي تجري فيه محاولات لاستخراج البترول من باطن الأرض اليمنية». وإن إدراج شبوة، وهي منطقة بترولية أيضاً، ضمن أراضي المحمية الشرقية، لم يجعلها بمعزل عن هجمات اليمنيين عليها، مطالبتهم بها. والحقيقة أنه ما إن يُكتشف البترول، حتى تثور النفوس. وقد قام بعض المنشقين في حضرموت وبئر ثمود، وهما منطقتان مسالمتان، وبعيدتان عن اليمن، بمهاجمة بعض

المنقبين عن البترول في فبراير«شباط» ١٩٥٧م. وإن وجود البترول في هذه المنطقة معروف منذ عام ١٩٥٤م.

هل هناك في بيحان، و شبوة، وبئر ثمود كميات من البترول صالحة للاستثمار التجاري ؟ وإذا كان الجواب إيجابياً، فإن بعدها عن الساحل[١٧٣]، والعقبات الطبيعة التي ينبغي العمل على تذليلها، هما أهون بكثير من العقبات التي تثيرها المطالبة اليمنية الملحة. وقد بدأت بالظهور سلسلة من العقبات، عندما وصل المنقبون عن البترول، التابعون لشركة أرامكو، الذين يتجهون مسرعين نحو الجنوب، إلى المناطق المتنازع عليها، التي تضعف فيها السلطة وتتلاشى في رمال الربع الخالي.

obeikandl.com